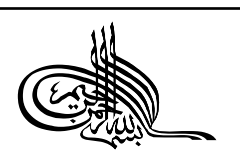


ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ (القرآن الحكيم)





مجلة عربية إسلامية شهرية

تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٨ ، السنـــــة : ٤٦

شعبان ١٤٤٣هـ ، مارس – أبريل ٢٠٢٢م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني

رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت

Web : http://www.darululoom-deoband.com/arabic/magazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي

دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)

الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المحتويات

كلمة المحرر

عداء وخداع

قررت وزارة التعليم الهندي عقد برنامج «سوريا نامسكار» (Surya Namaskar) في المدارس الرسمية بمناسبة يوم الحرية الخامس والسبعين في ثلاثين ولاية، تغطي مرحلته الأولى حوالي (٣٠,٠٠٠) طالب في مختلف المدارس، وذلك اعتبارًا من ١/يناير عام ٢٠٢٢م إلى السابع من شهر فبراير. وأصدرت حكومة ولاية «كرناتكا» الهندية في الأيام الأخيرة تعميمًا إلى المدارس والكليات الرسمية يشدد على ضرورة عقد هذا البرنامج، وتأمين حضور أكبر عدد من الطلاب، وكان التعميم يخص أولا الكليات الرسمية ثم شمل فيها بعد المدارس الرسمية كذلك. وكلمة «سوريا نامسكار» (Surya Namaskar) أصلها من اللغة السنسكريتية، وتعني تقديم التحية إلى الشمس، ثم تحولت إلى الخضوع للشمس، فإن الممارس لهذه العملية يقف متوجهًا إلى الشمس على وضعية العبادة والصلاة كما لايخفى على أحد.

ومهما قيل أو يقال في تفسير «سوريا نامسكار» و تبرير فرضه على طلاب منتمين إلى ديانات وعقائد مختلفة في الهند التي تشكل مزيجًا من الثقافات؛ فإنه لايعدو الصلاةَ والخضوع والسجود للشمس، التي يعتبرها بعض الديانات إلهًا يُعبد. والمسلم - بحكم دينه وعقيدته القائمة على عبادة الله تعالى وحده، والنفور من الشرك وشوائبه- لا يسعه بصورة أو أخرى أن يسجد للشمس أو يعبدها؛ فإنه يؤمن بأن الشمس من نِعَم الله تعالى التي سخرها للبشر، وأنها من أكبر منابع الطاقة بصنع الله سبحانه، وآية من آياته على وحدانيته، وخلقٌ من خلقه سبحانه. وقد شرحت الآيات القرآنية عددًا من منافع الشمس وفوائدها، ثم حذرت تحذيرًا شديدًا عبادتَها، يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۝٥﴾ [يونس:٥]، ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ۝٢٩﴾ [لقمان:٢٩]. والشمس خاضعة لأمر الله تعالى، مسخرة له حتى في حركاتها وسيرها، يقول الله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ۝٤٠﴾ [يس:٤٠]. ولايسع المسلمَ- بصورة أو أخرى- أن يسجد للشمس أو يعبدها، يقول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ۝٣٧﴾ [فصلت:٣٧]. وأما أن الشمس تجلب للناس منافع عديدة فلايعني ذلك أن يندفع البشر إلى عبادتها؛ لأن النفع منها إنما هو بتسخير الله تعالى إياها فهو الذي ينبغي أن يُسجد له دون غيره سبحانه.

ويؤكد هذا المعنى الحديث النبويُّ، فقد روى مسلم(برقم:٩١٥) وغيره عن المغيرة بن شعبة، يقول: «انكسفت الشمس على عهد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يوم مات إبراهيم، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى تنكشف».

ونظرًا إلى خطورة التعميم، ومساسه الدينَ الإسلامي مباشرةً طالبت المنظمات الإسلامية الهندية الحكومةَ بضرورة إلغاء هذا البرنامج، وأشارت إلى أن الهند بلد جمهوري يحتضن ديانات وثقافات متنوعة كثيرة، و دستور البلاد قائمٌ على هذا الأساس، ولايسمح للمؤسسات التعليمية الرسمية بأن تزود الطلاب بتوجيهات دينٍ خاصٍ أو عقد برامج ينسجم مع عقائد ديانة بعينها. فإلى الله المشتكى، وعليه التكلان. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة التاسعة صباحًا من يوم الخميس٩/جمادى الآخرة ١٤٤٣هـ=١٣/يناير ٢٠٢٢م).

ما أحوجنا إلى التهيئة النفسية لشهر رمضان الفضيل؟!

خلـق الله تعـالى الإنـسان وكرَّمـه، وفـرض فرائض، وشرع لـه أحكامًا يدين الله تعالى، ويتعبد بها ربه سبحانه. ولم يُلقِ الله تعالى هذه الأحكام عليه إلقاءً، ولم يدفعه إلى أدائها دون تهيئة نفسية لها، أو تمهيد لِلجَوِّ للقيام بها؛ فإن الإنسان ليس آلة تتحرك بمجرد تحريكها. وهذا المعنى نجده بارزًا واضحًا وضوح الشمس في رائعة النهار في جميع الأحكام الشرعية، ونلمسه بالبنان في معظمها، وإن خفي أحيانًا ذلك على البشر بحكم القوة الفكرية القاصرة التي يتمتع بها.

ولنأخذ-مثلًا – الصلاة، وهي أعظم أركان الإسلام، وعموده ؛فقد قدَّم على أدائها تهيئة المسلم تهيئةً نفسية لإقامتها. ومن هذه التهيئة النفسية الأذان، فهو إيذانٌ بدخول وقتها، ويندب المؤمن إلى إجابة المؤذن، والداعي إليها. ولنا في النبي ﷺ، والسلف الصالح أسوةٌ حسنةٌ في التهيئة النفسية، والاستعداد للقيام بهذه العبادة العظيمة، وتفريغ القلب من الشواغل، والإعراض عن كل ما ينافيها؛ والإقبال بالقالب والقلب عليها. فعن الأسود، يقول: سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن صلاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالليل، فقالت: «كان ينام أول الليل، فإذا كان السحر أوتر ثم يأتي فراشه، فإن كان له حاجة إلى أهله ألَمَّ بهم ثم ينام، فإذا سمع النداء» – وربما قالت: «الأذان وثب»، وما قالت: قام – «فإن كان جنبًا أفاض عليه الماء»- وما قالت: اغتسل- «وإن لم يكن جنبًا توضأ ثم خرج إلى الصلاة» (أبوداود الطيالسي١٤٨٣).

وعن عدي بن حاتم قال: «ما جاء وقت الصلاة إلا وأنا إليها بالأشواق، وما دخل وقت صلاة قط إلا وأنا لها مستعد» (الزهد لابن حنبل:١١٢١).

وهذا إبراهيم بن ميمون المروزي- أحد كبار المحدثين، وكان يكسب عيشه بالصياغة، وطرق الذهب والفضة- ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: «كان من أهل مرو، وكان فقيهًا فاضلًا من الأمارين بالمعروف». وقال ابن معين: «كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردها»(تهذيب التهذيب١/١٧٣).

ومن التهيئة النفسية، والاستعداد للصلاة الوضوءُ والطهارةُ قبلها حتى لايدخل المرء فيها، وهو على غير طهارة، منشغلَ البال، قلقَ الفكر، شاردَ الذهن؛ ثم التوجه إلى المسجد قبل إقامة الصلاة. قال سعيد بن المسيب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنةً إلا وأنا في المسجد. وقال سفيان بن عيينة: لاتكن مثل عبد السوء لايأتي حتى

يُـدعى: ايـت الـصلاة قبـل النـداء. (التبـصرة لابـن الجوزي، ص١٣٧). وقال سفيان بن عيينة: إن من تـوقير الـصلاة أن تـأتي قبـل الإقامـة» (حليـة الأولياء٧/٢٠٥).

والحج أحد أركـان الإسـلام ودعائمـه، وقـد فرضه الله تعالى على كل من استطاع إليه سبيلا، و شرع قبل الاشتغال به ما يهيئ الحاج نفسيًا وذهنيًّا لأداء هـذه الفريـضة العظمـى، وهـو الإحـرام؛ فـإن الهدف من الإحرام– عِلاوةً على الحِكَم الكثيرة–هو الاستعداد والتهيؤ النفسي له، ولفتُ انتباه الوافد إلى أنه يُقبل على عبادةٍ عظيمةٍ، ويدخل حرم الله تعالى، الـذي شرع لـه أحكامًـا خاصـةً، وليتعمـق في نفـسه الـشعور بأنـه في حظـيرة القـدس، ومحط رحمات الله تعـالى ليـل نهـار، وأن العبـادة التـي سيقوم بهـا عبـادة بالغـةُ الأهميـة وساميةُ المنزلـة، وأنـه يعـود منهـا كـأنما ولدتـه أمـه، فيجـب أن يغـيِّر وضـعه العـادي مـن الميقـات، ويتحـول عـن الحالـة كـان عليهـا، وهـو بـين أهلـه وذويـه وفي شـؤون دنيـاه، وأن يتجنـب المخـيط من الثياب، وتغطية الرأس بالنسبة إلى الرجل.

وممـــا يـــشير إلى ضرورة التهيئـــة النفـــسية، والاستعداد للعمل الصالح ما وردَ في قصة إبراهيم –عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ– حين أمره الله تعالى في المنام بأن يذبح وحيده، فلم يذهب إبراهيم عليه السلام ليطبق ما رآه في المنـام عـلى أرض الواقـع في انـدفاع وعجلـةٍ ليتخلص من هذا العبء الثقيل، وإنما قدَّم على ذلك تمهيد السبيل إليه، والتهيئة النفسية لولـده بإشعاره وإخباره بأنه رأى في المنام أنه يذبحه، واستعلم رأيه في ذلك. يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

قال الزمخشري في الكشاف في تفسير الآية: «فإن قلـت: لم شـاوره في أمـر هـو حـتم مـن الله؟ قلـت: لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم ما عنده فيما نـزل بـه مـن بـلاء الله، فيثبـت قدمـه، ويـصبره إن جـزع، ويـأمن عليـه الزلـل، إن صـبر وسـلم، وليعلمـه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها، ويلقى البلاء، وهو كالمستأنس به، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبـل نزولـه؛ ولأنّ المغافـصة بالـذبح ممـا يستـسمج، وليكـون سـنةً في المـشاورة. فقـد قيـل: لـو شـاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك».

وقال ابن كثيرفي تفسيره (٧/٢٨): «وإنما أعلم ابنـه بـذلك؛ ليكـون أهـون عليـه، وليختـبر صـبره و جلَده وعزمه على طاعة الله وطاعة أبيه».

ومـن صـور التهيئـة النفـسية للأضـحية مـا ورد عــن أم ســلمة، أن النبــي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قــال: «إذا دخلت العشر، وأراد أحدكم أن يضحي، فلا يمس من شعره وبشره شيئًا» (صحيح مسلم:١٩٧٧).

قـال النـووي في شرحـه عـلى صـحيح مـسلم: «قـال أصـحابنا: والحكمـة في النهـي أن يبقـى كامـل الأجزاء ليعتق من النار. وقيل: التشبه بالمحرم. قال أصحابنا: هذا غلط؛ لأنه لايعتزل النساء، ولايترك

الطيب واللباس وغير ذلك مما يتركه المحرم».

وقـد حـثّ النبـي ﷺ عـلى ضرورة التهئيـة النفسية لـشهر رمـضان بفعلـه وقولـه. فقـد وردت أحاديـث كثـيرة في صـومه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شـعبان، وبيـان الحكمـة في صـيامه ذلـك عـلاوةً عـلى التهيئـة النفسية. ومنها: ما رواه البخاري (برقم: ١٩٦٩)، ومسلم (برقم ١١٥٦) عن عائشة رضي الله عنها، قالـت: كـان رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يـصوم حتـى نقـول: لايفطر، ويفطر حتى نقـول: لا يـصوم، فـما رأيـت رسـول الله ﷺ اسـتكمل صـيام شـهر إلا رمضان، وما رأيته أكثر صيامًا منه في شعبان».

قـال العيني في عمـدة القـارئ (١١/٨٣): فَإِن قلت: مَا وَجه تَخْصِيصه شعْبَان بِكَثْرَة الصَّوْم؟ قلت: لكـون أَعـمال الْعِبـادة ترفـع فِيـهِ. فَفِـي النَّـسَائيّ مـن حَـدِيث أُسَـامَة قلـت: يـا رسـول الله، أَراك لَاتَـصوم من شهر من الشُّهور مَا تَصُوم من شعْبَان؟ قَالَ: ذَاك شـهر ترفـع فِيـهِ الْأَعْـمَال إِلَى رب الْعَـالمين؛ فَأحب أَن يرفع عَمَلي وَأَنا صَائِم». اهـ.

وقال الشوكاني في النيل(٤/٢٩١): واختلف في الحكمة في إكثاره -ﷺ- من صوم شعبان فقيل: كان يشتغل عن صيام الثلاثة الأيام من كل شهر لسفر أو غيره فتجتمع فيقضيها في شعبان، أشار إلى ذلك ابن بطـال. ويؤيـده مـا أخرجـه الطـبراني في الأوسـط عـن عائشة قالت: «كان رسول الله- ﷺ - يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، فربما أخر ذلك حتى يجتمع عليه صوم السنة فيصوم شعبان»، ولكن في إسناده ابن أبي لـيلى وهـو ضـعيف. وقيـل: كـان يـصنع ذلـك لتعظـيم رمضان، و يؤيده ما أخرجه الترمذي عن أنس قال: «سـئل رسـول الله- ﷺ-: أيُّ الـصوم أفـضل بعـد رمـضان؟ فقـال: «شـعبان لتعظـيم رمـضان»؛ ولكـن إسـناده ضـعيف؛ لأن فيـه صـدقة بـن موسـى، ولـيس بالقوي. وقيل: الحكمة في ذلك أن نساءه كن يقضين ما علـيهن مـن رمـضان في شـعبان، فكـان يـصوم معهـن. وقيـل: الحكمـة أنـه يتعقبـه رمـضان وصـومه مفـترض، فكان يكثر من الصوم في شعبان قدر ما يصوم شهرين غـيره لمـا يفوتـه مـن التطـوع الـذي يعتـاده بـسبب صـوم رمضان. والأولى أن الحكمة في ذلك غفلة الناس عنه لمـا أخرجـه النسائي، وأبـوداود، وصـححه ابـن خزيمـة مـن حـديث أسـامة قـال: «قلـت: يـا رسـول الله لم أرَك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب و رمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأحب أن يرفع عمـلي وأنـا صـائم»، و نحـوه مـن حـديث عائـشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند أبي يعلى، ولا تعارض بينه وبين ما روي عنـه-ﷺ- مـن صـوم شـعبان أو أكثـره و وصـله برمضان، وبين أحاديث النهي عن تقدم رمضان بصوم يوم أو يومين، وكذا ما جاء من النهي عن صوم نصف شعبان الثاني؛ فإن الجمع بينها ظاهر بأن يحمل النهي على من لم يدخل تلك الأيام في صيام يعتاده، وقد تقدم تقييد أحاديث النهي عن التقدم بقوله-ﷺ- «إلا أن يكون شيئًا يصومه أحدكم»اهـ

وعـن عائـشة رضي الله عنهـا قالـت: «لم يكـن

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصوم شهرًا أكثر من شعبان؛ فإنه كان يصوم شعبان كله، وكان يقول: خذوا من العمل ما تطيقون؛ فإن الله لايمل حتى تملوا، وأحب الصلاة إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما دُووم عليه وإن قلّت. وكان إذا صلى صلاة داوم عليها» (البخاري:١٩٧٠).

وعن أبي سلمة قال: سألت عائشة- رضي الله تعالى عنها- عن صيام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: «كان يصوم حتى نقول: قد صام، ويفطر حتى نقول: قد أفطر، ولم نره صائمًا من شهر قط أكثر من صيامه من شعبان، كان يصوم شعبان إلا قليلا» (صحيح مسلم:١١٥٦).

وقد ندب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحثَّ على صيام شعبان، فيما رواه عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَهُ- أَوْ لِآخر-: «أَصُمْتَ مِنْ سُرَرِ شَعْبَانَ؟» قَال: لا، قال: «فَإِذا أَفْطَرْتَ، فصُمْ يوْمَيْنِ» [مسلم:١١٦١].

وروى الإمام الترمذي في سننه (برقم:٦٦٣) من حديث أنس -رضي الله عنه- قال: سُئِلَ النَّبِيُّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الصوْمِ أَفْضَلُ بَعْدَ رَمَضَانَ؟ فقال: «شَعْبَانُ لِتَعْظِيمِ رَمَضَانَ»، قِيلَ: فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«صَدَقَةٌ فِي رَمَضَانَ».

نافلة القول أن شهر شعبان يشكل مقدمةً وتدريبًا وتمرينًا لصيام رمضان وقيامه، فعلى المسلم أن يستعد لهذا الشهر الفضيل بالصيام والاجتهاد في العبادة، وقراءة القرآن الكريم؛ فيدخل عليه شهر رمضان، وهو على استعداد كافٍ، ونشاط موفور، ولذة وسرور، ومرانٍ وتدربٍ لكسب خيرات هذا الشهر الفضيل وبركاته، وما يصبه الله تعالى على البشرية من رحمته، ورضوانه، ومغفرته في هذا الشهر دون الشهور الأخرى، ويستأهل لنيل الحظ الوافر من الأجر والجزاء الحسن الذي أعده الله تعالى للصائم. فقد روى أبو هريرة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «قال الله: كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام، فإنه لي، وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل إني امرؤ صائم. والذي نفس محمد بيده، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه» (صحيح البخاري:١٩٠٤).

فعلى المسلم حين يدخل عليه شهرا رجب وشعبان، وتظهر بشائر شهر رمضان، أن يتضرع إلى الله تعالى أن يبلغه رمضان؛ اقتفاءً لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد روى أنس بن مالك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه كان يدعو ببلوغ رمضان يقول- إذا دخل رجب-: «اللّٰهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان» [المعجم الأوسط:٣٩٣٩].

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

(تحريرًا في الساعة الرابعة مساء من يوم الجمعة: ١٠/جمادى الآخرة ١٤٤٣هـ الموافق١٤/يناير ٢٠٢٢م).

* * *

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائظ القاسمي المباركفوري[*]

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

فيما مضى ترغيب وترهيب، أي تأكيد طاعة أمر الله تعالى، والتحذير من مخالفته، وتحريم الإصغاء إلى قول أحد بجنب أمر الله تعالى. وتخلل ذلك بعض الأحكام الخاصة باليتامى و النساء، التي وقع فيها الناس. ثم يعود إلى مضمون الترغيب والترهيب مرة أخرى، وحاصل الآيتين أن الله تعالى قد أوصاكم ومن قبلكم بأن اتقوا الله تعالى، واحذروا مخالفة أمره، فإن أبى أحد أمره وحكمه، فإن الله تعالى بيده كل شيء، ولايعبأ بأحدٍ، أي لايضر من خالف أمره إلا نفسه، و لايضر الله شيئا، وإن أطعتموه فاعلموا أن الله مالك كل شيء، فيتولى أموركم كلها.

ثلّث قوله: (مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ)، والمراد بالأول التوسعة، بأن عنده خزائن كل شيء، والمراد بالثاني بيان استغنائه سبحانه وتعالى بأنه لايعبأ بكم إن كفرتموه، والمراد بالثالث بيان رحمته وتمكنه من التصرف في كل شيء إذا ما اتقوا.

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

أي أن الله تعالى قادر على أن يُفنيكم، ويرفعكم من الدنيا، ويستخلفكم من يطيعونه، ويتجلى منه كمال استغناء الله تعالى، بالإضافة إلى التهديد للعصاة والتخويف لهم.

مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

أي إذا أطعتموه منَّ عليكم في الدنيا والآخرة، فمن السفه بمكان أن يقبل المرء بكليته على الدنيا، ويُحرم في الآخرة بعصيانه سبحانه.

فائدة: أي يرى الله تعالى أعمالكم كلها، ويسمع مقالاتكم كلها، فلا يعطي إلا ما تطلبونه وتقصدونه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ

[*] أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾

أي لابد أن تكون الشهادة صادقة وموافقة لأمر الله تعالى، ولو أضر ذلك أنفسكم أو قريبًا من أقربائكم، فلابد من بيان الحق، ولاتضروا آخرتكم لأجل حطام الدنيا.

فائدة: أي لاتتبعوا هوى أنفسكم في العدل في الشهادة، ولاتتخلوا عن الحق مراعاةً لثري أو رحمةً بمحتاج، فلاتقولوا إلا الحق، فإن الله تعالى أنصح لهم منكم، وأعلم بمصالحهم، ولاينقصه شيء.

فائدة: وَليُّ اللسان أن يقول القول الحق، ولكن حرَّف الكلام في النطق به، فأوهم السامع، أي لم ينطق بالحق الصريح، و أمسك طرفًا منه، والإعراض أن يُبقي الكلامَ مبتورًا، ويحتفظ لنفسه بطرف منه، فهو وإن لم يكذب في هذين الوجهين، ولكن يأثم؛ لأنه لم يظهر الحق، فيجب أداء الشهادة واضحة كاملة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

أي يجب على من يدخل في الإسلام أن يستيقن من أعماق قلبه بأحكام الله تعالى، فإن شك في حكم من أحكامه لم يدخل في الإسلام. ولاعبرة بالكلام الظاهر واللساني.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾

أي الذين تظاهروا بالإسلام، وقلوبهم مذبذبة مترددة، وماتوا على عدم اليقين، لن يهتدوا إلى النجاة، فهم كفار، ولايغنيهم التظاهر بالإسلام، والمراد بهم المنافقون. وقيل: هم اليهود، الذين آمنوا ثم كفروا بعبادة العجل، ثم تابوا وآمنوا، ثم كفروا لإنكارهم نبوة عيسى عليه السلام، وتقدموا في الكفر بإنكار رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾

أي المنافقون الذين يتخذون الكفار أولياء بدلا من المؤمنين، لهم عذاب شديد، وأما زعمهم بأن مجالستهم الكفار تجلب لهم العزة في الدنيا، فلغو وباطل، فإن العزة كلها لله تعالى، فمن أطاعه أعزه. والحاصل أن أمثال هؤلاء يقعون فريسةً للذل والمهانة في الدنيا والآخرة.

وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

أي أيها المسلمون، قد أنزل الله تعالى عليكم في القرآن الكريم أن تحذروا الجلوس في مجلسٍ يستهزأ فيه بأحكام الله تعالى، وإلا دخلتم في عدادهم، وأما إذا اشتغل المجلس في غيره، فلا بأس بالجلوس معهم.

كانت مجالس المنافقين تشهد الكفر بأحكام الله تعالى والاستهزاء بها في معظم الأحوال، فنزلت هذه الآية، وقوله: (قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتٰبِ) يشير إلى قوله السابق نزولا: (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴿٦٨﴾) [الأنعام:٦٨].

فائدة: علم منه أن من سمع الطعن في دينه والعيب فيه في مجلس من المجالس، ولم يقعد منه، فإنه منافق وإن لم ينبس ببنت شفة.

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴿١٤١﴾

أي هم المنافقون الذين يتحينون وينتظرون لكم الحوادث، فإن كان لكم فتح، قالوا لكم: ألسنا معكم، فهلا تشركونا في الغنائم، وإن كان للكافرين نصيب من غلبة وانتصار، قالوا لهم-للكفار-: ألسنا قد أحطنا بكم إحاطة العناية والنصرة وألم نحفظكم من ضرر المسلمين، فآتونا نصيبًا مما غنمتم.

فائدة: عُلِم منه أن التواطأ مع الضالين – وإن كان هو على الدين الحق-شعبة من النفاق.

فائــدة: يقضي الله تعالى بينكم وبينهم، فيدخلكم الجنة، ويزج بهم إلى النار، فليأتوا ما استطاعوا في الدنيا، ولن يستطيعوا أن يستأصلوا أهل الإيمان، وهو ما يتمنونه.

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴿١٤٢﴾

أي يكنون الكفر في قلوبهم، ويتظاهرون بالإسلام، ليكونوا بمنجاة من ضرر وإيذاء الفريقين، وينتفعوا منهما جميعًا. فعاقبهم الله على خداعهم هذا بأن كشف لنبيهم عن جميع شرورهم وخبائثهم الخافية، فأذلهم إذلالًا لم يقم معه لهم ثقة واعتبار، وحصحص خداعهم للمسلمين، كما شرح مالهم في الآخرة من عقوبة وعذاب، كما سيأتي ذكره في الآيات اللاحقة، والحاصل أن خداعهم لم يغنهم شيئًا، وأوقعهم الله تعالى في خداعٍ أهلكهم في الدنيا والآخرة.

فائدة: أي هؤلاء المنافقون يتكاسلون في إقامة الصلاة، وهي من أوجب العبادات وأخلصها، ولاتؤدي إقامتها إلى ضرر في مالهم أو جسدهم. وإنما يلجؤون إلى إقامة الصلاة رياءً للناس، و خداعًا لهم، كيلا يطلع على كفرهم أحد، ويراهم الناس مسلمين، فأنى يُرجى من أمثالهم، وكيف يوصفون بالإسلام.

مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴿١٤٣﴾

أي لقد أصبح المنافقون فريسةً سائغة للتردد والحيرة، فلايطمئنون إلى الإسلام، ولا إلى الكفر، فهم في حرج شديد، فيميلون حينًا إلى هذا، وحينًا آخر إلى هذا، وأنى يجد سبيلاً إلى النجاة مَن أراد الله

تعالى أن يضله.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

موالاة الكفار من دون المؤمنين دليل على النفاق، كما عليه المنافقون، فاحذروه كل الحذر أيها المسلمون، وإلا قامت عليكم حجة الله تعالى وسلطانه المبين عليكم بأنكم منافقون. والمنافقون لهم الدرك الأسفل من النار، ولاناصر لهم يخرجهم من هذا الدرك أو يخفف عنهم العذاب. فليحذر المؤمنون ذلك.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾

أي من تاب من المنافقين من نفاقه، وأصلح أعماله، واستمسك بالدين المرضي عند الله تعالى، وتوكل على الله تعالى، وأخلص دينه من الرياء وغيره من المفاسد، فهو المؤمن المخلص، وهو مع المؤمنين في الدنيا والآخرة. وسوف يؤتى أهل الإيمان ثوابًا عظيمًا، فيعطى معهم كل من تاب من النفاق توبةً نصوحًا جزاءه.

مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

أي الله تعالى شكور لأعمال الخير، ويعلم كل العلم بما عليه عباده، فمن انقاد لأمره شاكرًا له سبحانه، وآمن به، فما كان الله تعالى العادل الرحيم ليعذب أمثال هؤلاء، أي لن يعذبهم، وإنما يعذب الطغاة العصاة.

لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

أي إذا رأى في غيره عيبًا ونقيصة في دينه أو دنياه فلايشهره بها، فإن الله تعالى سميع للناس جميعًا، وعليم بأعمالهم. ويجازي كل أحد على وفقه. وهذا العمل يسمى «غيبة»، إلا أنه يرخص للمظلوم أن يخبر الناس بظلم الظالم. ويدخل فيه وجوه أخرى من الغيبة، وإنما سرد هذا الحكم هنا بقصد تحذير المؤمن من كشف اسم أحد من المنافقين وتشهيره، وألايطعن فيه على مرأى من الناس؛ فإنه ربما يحمله على الغضب، والجرأة أكثر، وإنما ينصحه بأسلوب يشوبه الإبهام؛ فإن المنافق يدركه بدوره أو يخلو به وينصحه، فربما يحمل ذلك على قبول الهداية، وكان دأب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لايسمي أحدًا من المنافقين ويشهر به.

إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

هذه الآية تنظر إلى ترغيب المظلوم في العفو، فإن الله تعالى- وهو هو في عظمته وقدرته- يغفر للمخطئين خطأهم، فلأن يغفر ويعفو العبد- وهو المغلوب العاجز- لغيره أولى. والحاصل أنه يجوز للمظلوم أن ينتقم من الظالم، ولكن الأفضل أن يصبر، ويعفو. وفي الآية إشارة إلى أنه يجب أن تصبروا على أذى المنافقين وشرورهم، وتنصحوهم برفق ولين وفي خلوة بهم، واحذوروا الطعن واللعن

عليهم علنًا، ولاتتخذوهم أعداء معلنين بالعداوة، إن كنتم تريدون إصلاحهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾

من هنا بدأ ذكر اليهود، وكان لليهود نصيب كبير من النفاق، والمنافقون في عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كانوا يهودًا أو على حب وعلاقة بهم، ويأخذون برأيهم، فذكر القرآن أحدهما مقرونًا بالآخر في معظم الأحوال. وخلاصة الآية أن الذين يكفرون بالله ورسوله، و يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، أي يؤمنون بالله ويكفرون برسله، أو يؤمنون ببعض الرسل دون بعض، والمعنى أنهم يريدون أن يشقوا دينا بين الإسلام والكفر أولئك هم الكافرون حقًا، قد أعد لهم عذاب الذل والهوان.

فائدة: والعبرة بالإيمان بالله تعالى إذا صدَّق رسول عصره، وأطاعه، ومن الباطل الإيمان بالله دون تصديق الرسول، ولاعبرة به؛ بل تكذيب نبي من الأنبياء يعد كفرًا بالله ورسله جميعًا. فلما كذب اليهود الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كانوا مكذبين لله ورسله جميعًا، وكفرة حقًا.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾

أي والذين لم يفرقوا بين الرسل؛ بل آمنوا بالله ورسله جميعًا، أعطاهم الله تعالى أجرًا عظيما برحمته، وهم المسلمون، الذين آمنوا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وسائر الأنبياء.

يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾

أتى النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عدد من رؤساء اليهود، وقالوا: إن كنت صادقًا أنك رسول الله، فآتنا كتابا مَكْتُوبًا من السَّماء مرةً واحدةً، كَما جَاءَ مُوسَى بالتوراة، فنزلت هذه الآية. وهذا الركوع برمته يشتمل على ردود إلزامية عليهم ثم ساق الرد التحقيقي. ومعنى الآية: يا محمد، إن اليهود الذين يطالبونك عنادًا بإتيان كتاب هذه صفته، لا عجب في وقاحتهم وتعنتهم وتمردهم، فقد طالب أسلافهم نبيهم موسى عليه السلام بما هو أشد وأفظع، وقالوا له: لانؤمن حتى ترينا الله جهرة، كما سبق في سورة البقرة. فنزلت صاعقة على من طالبوه بذلك، وماتوا عن أسرهم، ثم بعثهم الله بدعاء موسى عليه السلام. وبعد ما رأوا هذه الآيات الواضحات العظيمة عبدوا العجل، ثم عفا الله تعالى عنهم، وقد سبق ذلك بشيء من التفصيل في سورة البقرة.

فائدة: (سُلْطَنًا مُّبِيْنًا) هو أن موسى عليه السلام أحرق العجل بعد أن ذبحه، وذر رماده في الهواء على البحر، وقُتِلَ سبعون ألفا ممن عبدوا العجل.

* * *

مناهج المؤلفين في السيرة النبوية

بقلم: أ. د. رشيد كهوس (*)

اختلفت مناهج المؤلِّفين في السيرة النبوية العطرة، ما بين مطولات ومختصرات، ومنشورات ومنظومات، وما بين أسلوب الإخباريين والمؤرخين والمحدثين والفقهاء، وما بين مناهج السرد التاريخي والتناول الموضوعي والأدبي والصوفي، وغير ذلك.

هذا إضافة إلى أن السيرة النبوية تناولتها أقلام غير إسلامية كأقلام المستشرقين، كما تناولتها أقلام من سار على سبيل المستشرقين من أبناء جلدتنا من التغريبيين والحداثيين والماركسيين وغير ذلك.

لقد وضع علماء الأمة أسسًا ومنهجًا دقيقًا للعناية بالسيرة النبوية الشريفة، فاعتنوا بنقد أسانيدها ومتونها، وشرح غريب ألفاظها، وتوضيح مشكلها، وجرح وتعديل رواتها، وأُلفت في ذلك مؤلفات كثيرة لا حصر لها.

وإن عدم التزام المؤلفين بمنهج واحد في كتابة السيرة النبوية يرجع إلى تخصص كل واحد منهم ومجاله، وإلى هدف كل مؤلف في السيرة النبوية؛ فمنهم من اعتمد المنهج السردي للأحداث تساق فيه الروايات بتسلسل مترابط، ومنهم من اعتمد المنهج التاريخي؛ وذلك بكتابة السيرة بأحداثها وترتيبها ترتيبًا زمنيًّا بحسب وقوعها وتسلسلها الزمني... ومنهم من اعتمد المنهج الموضوعي التحليلي وذلك بالغوص في نصوصها وأحداثها ومشاهدها يتأملها، ويستلهم منها العبر والعظات والدروس والسنن الربانية منها ويربطها بالواقع. ومنهم من حاد عن المنهج الصحيح كالمستشرقين والتغريبيين الذين ألفوا في السيرة النبوية بمناهجهم الخاطئة التي نتج عنها نظرة مشوهة إلى السيرة النبوية الطاهرة.

وسأفصل كل هذا فيما يأتي.

أولا-: المنهج الحديثي:

يعتمد منهج علماء الحديث النبوي الشريف في رواية السيرة النبوية العطرة وتدوينها على تطبيق منهج (الجرح والتعديل) في نقل الأخبار والمرويات المتعلقة بالسيرة الشريفة. بحيث التزموا قواعد التحديث والرواية، وتمييز الأسانيد عن بعضها، والعناية برواياتها ورواتها وتوثيقها وتمحيصها، مما جعل أمة الإسلام تمتاز بعلم لا يوجد في أمة أخرى من الأمم، وهو علم الجرح والتعديل.

كل ما ورد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحِص ودقِّق، وثبت نسبته بطرق الإثبات المعروفة عند أهل الحديث. وقد وصلت عناية المسلمين بسيرة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ درجة فائقة لم تبلغها أمة من

(*) أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان جامعة عبد المالك السعدي- المغرب.

قبـل بنبيهـا، في حفـظ مـا ورد عنـه مـن كـل صـغير وكبير، والخـوف مـن التقـوُّل عليه ﷺ بـما لم يقـل، فهم يعلمون عظم هذا الفعل، وشدة جرمه، ووخيم عقابه في الآخرة، يقول النبي ﷺ: «من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» (متفق عليه).

إن علماء الحديث النبوي الشريف هُمُ الَّذِينَ حَفِظُوا عَلَى الْأُمَّةِ هَذَا الدِّينَ، وَأَخْبَرُوا عَنْ أَنْبَاءِ التَّنْزِيلِ، وَأَثْبَتُوا نَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ، وَمَا عَظَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنْ شَأْنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَقَلُوا شَرَائِعَهُ، وَدَوَّنُوا مَشَاهِدَهُ، وَصَنَّفُوا أَعْلَامَهُ وَدَلَائِلَهُ، وَحَقَّقُوا مَنَاقِبَ عِتْرَتِهِ، وَمَآثِرَ آبَائِهِ وَعَشِيرَتِهِ، وَجَاءُوا بِسِيَرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَقَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَأَخْبَارِ الشُّهَدَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ، وَعَبَّرُوا عَنْ جَمِيعِ فِعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي سَفَرِهِ وَحَضَرِهِ، وَظَعْنِهِ وَإِقَامَتِهِ، وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ، مِنْ مَنَامٍ وَيَقَظَةٍ، وَإِشَارَةٍ وَتَصْرِيحٍ، وَصَمْتٍ وَنُطْقٍ، وَنُهُوضٍ وَقُعُودٍ، وَمَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ، وَمَلْبَسٍ وَمَرْكَبٍ، وَمَا كَانَ سَبِيلَهُ فِي حَالِ الرِّضَا وَالسُّخْطِ، وَالْإِنْكَارِ وَالْقَبُولِ، حَتَّى الْقُلَامَةَ مِنْ ظُفُرِهِ، مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا، وَالنُّخَاعَةَ مِنْ فِيهِ أَيْنَ كَانَتْ وِجْهَتُهَا، وَمَا كَانَ يَقُولُهُ عِنْدَ كُلِّ فِعْلٍ يُحْدِثُهُ وَيَفْعَلُهُ عِنْدَ كُلِّ مَوْقِفٍ وَمَشْهَدٍ يَشْهَدُهُ تَعْظِيمًا لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْرِفَةً بِأَقْدَارِ مَا ذُكِرَ عَنْهُ وَأُسْنِدَ إِلَيْهِ ..[1].

فلم يترك المحدثون جانبًا من الحياة النبوية إلا تعرضوا لها في مصنفاتهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أفردوا أبواباً للمغازي النبوية، جمعوا فيها أخبار الجهاد وأحكامه التفصيلية، ولم يكتف المحدثون بهذا فقط؛ وإنما ألفوا أيضًا في موضوعات جزئية لها تعلق بهذا العلم.

وتكمن أهمية هذا المنهج ضمن أنماط الكتابة في السيرة النبوية في كونه يمكننا من الاطلاع على صحيح المرويات وسقيمها، وتمييز ما يقبل منها وما يرد، ثم بيان أحوال رواتها ونقلتها؛ فتُمحص مرويات السيرة النبوية ويُتحقق من أخبارها، وكذا التوثق من أحداثها، وذلك بإخضاعها للقواعد الصارمة لهذا المنهج وهي قواعد النقد عند المحدثين.. ولما كانت قواعد هذا المنهج الحديثي بهذه الصرامة فقد كان أسلم في كتابة السيرة الشريفة وفق قواعد علمية ومنهج سليم خال من الأخبار الواهية.

وإن من مميزات هذا المنهج الالتزام بقواعد علوم الرواية؛ حيث كانوا يطلبون اتصال السند بنقل العدول الضابطين الذين سمعوا الحديث الشريف وأدوه كما بلغهم، فاشترطوا العدالة بأن يكون من حدّث به ثقة في دينه، معروفًا بالصدق في حديثه، عاقلًا لما يحدِّث به، ضابطًا لما يرويه، سواء في صدره أو في كتابه.

فالسيرة النبوية العطرة عند المحدثين قسم من علوم الرواية التي تحكمها قواعد التحديث شأنها شأن أحاديث الأحكام. والشروط التي تخضع لها رواية السيرة هي شروط رواية السنة النبوية نفسها في حال اشتراط الصحة، أما المؤرخ الذي يؤلف في السيرة النبوية إذا لم يشترطها فالحال مختلف حينئذ.

ولعل أهم ما يميز مادة السيرة النبوية الغراء في كتب الحديث الشريف أنها موثقة. يجب الاعتماد عليها

وتقديمها على روايات كتب المغازي والتواريخ العامة، وخاصة إذا أوردتها كتب الحديث الشريف الصحيحة، فهي ثمرة جهود جبارة قدمها المحدثون عند تمحيص الحديث الشريف، ونقده سندًا ومتنًا.

كما أن منهج المحدثين يعتمد تقطيع الأحاديث وتخريجها في أبواب مختلفة، ولا يرتبونها ترتيبًا زمنيًّا أو موضوعيًّا كما يفعل علماء التاريخ، فقد يذكرون طرفًا من مشهد من مشاهد السيرة النبوية في باب العبادات مثلا، وطرفًا آخر في باب المغازي، وهكذا..

فلا شك «أن اشتراط الصحة الحديثية في كل رواية تاريخية نريد قبولها فيه تعسف؛ لأن ما تنطبق عليه هذه الشروط لا يكفي لتغطية العصور المختلفة للتاريخ الإسلامي[...] يكفي في الفترات اللاحقة التوثق من عدالة المؤرخ وضبطه لقبول ما يسجله مع استخدام قواعد النقد الحديثي في الترجيح عند التعارض بين المؤرخين»[٢].

ومن خلال ما تقدم فقد انطلق المنهج الحديثي من عهد الصحابة رضي الله عنهم بجمع الروايات المتعلقة بالمغازي النبوية، وتدوينها؛ حيث دوَّنوا جزءًا غير قليل من وقائع السيرة الخالدة في حياة النبي ﷺ؛ ولكن ذلك لم يكن بشكل منفصل عن الحديث، وإنما كان مدونًا مع الأحاديث النبوية الشريفة.

ثم تطور هذا المنهج بشكل كبير بعد ذلك في عصر التابعين وتابعيهم..

خلاصة القول: يتميز المنهج الحديثي بثلاث ميزات: السند المتصل، الجمع بين رواية الحديث ودرايته، معيارية المتن:الغيب، التاريخ، شهود الواقعة.

ثانيا- المنهج التاريخي:

يقوم المنهج التاريخي على دراسة وقائع السيرة النبوية في ظروفها المكانية والزمانية والاجتماعية. وتدوين أحداثها وترتيبها ترتيبًا زمنيًّا تاريخيًّا بحسب وقوعها وتسلسلها الزمني. وهذا الجانب يلتقي إلى حد ما مع نقد المتن عند المحدثين، فقد نص المحدثون على أن من علامات الوضع أو الضعف في الرواية مخالفتها للمنقول أو مخالفتها للمعقول ومن ذلك مخالفة التاريخ والواقع والظروف المعلومة والثابتة[٣].

أضف إلى ما تقدم أن «بعض المُؤلفين جمع بين صفتي المحدث والمُؤرخ مثل: (محمد بن إسحاق) و(خليفة بن خياط)، و(محمد بن جرير الطبري)، وهؤلاء أفادوا منهج المحدثين بالتزام سرد الأسانيد ومحاولة إكمال صورة الحادث عن طريق جمع الأسانيد أحيانًا أو سرد الروايات التي تشكل وحدة موضوعية تحت عناوين دالة»[٤].

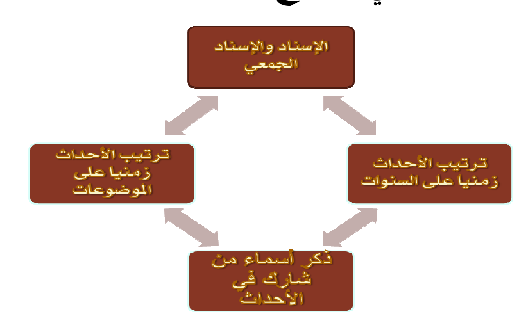
حيث يعرضون الحادثة الواحدة في موطن واحد وفي ترتيبها الزمني، ومردّ ذلك أنهم ينظرون إلى الخبر أو الحديث كأنه لبنة من اللبنات المكونة للسيرة العطرة، ومن ثم توضع في سياقها وترتيبها الزمني حتى تتكامل مراحل السيرة النبوية ويسلم بعضها إلى بعض، فيذكرون الخبر في موضع واحد، وهو ما يدل على سياقه الزمني بين الأحداث.

كما جرت عادة المؤرخين على ترتيب مصنفاتهم إما على السنين وهو الأليق بالتاريخ، أو على الحروف وهو الأليق بالتراجم، ومن يستعرض سيرة الإمام ابن هشام-رحمه الله- يجد عناية الإمام ابن إسحاق -رحمه

الله- الفائقة بتحديد تواريخ الأحداث وبخاصة في العهد المدني حيث الغزوات والسرايا التي كان يحددها بالسنة والشهر، وفي بعض الأحيان باليوم، وكذلك كان الأمر في مغازي الواقدي(٥).

يعتبر الإمام محمد بن إسحاق -رحمه الله- أنموذجًا للمنهج التاريخي حيث تتبع سيرة النبي ﷺ من الميلاد إلى التحاقه بالرفيق الأعلى، وجعلها على ثلاثة أقسام: المبتدأ، والمبعث، والمغازي.

مميزات المنهجي التاريخ:



ثالثا- المنهج الموضوعي:

المنهج الموضوعي هو أن يتناول المؤلف موضوعًا محددًا من موضوعات السيرة النبوية الشريفة، وينظر فيما يتصل به من أحداث السيرة الغراء، وأن يقوم بدراسة ذلك بتفصيل وشرح وتحليل واستنباط.

يدخل التصنيف الموضوعي في نطاق ما يعرف بالدراسات النوعية في السيرة النبوية التي تضم إلى جانب الدراسة الموضوعية الدراسة التحليلية والمقارنة والاستنباطية والهدائية...

المنهج الموضوعي على قسمين:

١- المنهج الموضوعي السردي.

٢- المنهج التحليلي والاستنباطي.

أ- المنهج الموضوعي السردي:

لقد أفرزت نتاجات المسلمين القدامى مصنفات مستقلة تتناول موضوعًا خاصًّا أو جانبًا واحدًا من جوانب السيرة، مثل ذكر مولده، أو أعلام نبوته، أو أخلاقه وشمائله وخصائصه، أو أسمائه... وغيرها من المواضيع التي عرضها بعض المؤرخين بشمولية عند ذكرهم لسيرة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذه الكتابات وإن التزمت موضوعًا واحدًا، لكنها لم تخرج عن المنهج السردي، حيث تكتفي بما جاء في الموضوع من مرويات.

ب - المنهج الموضوعي التحليلي الاستنباطي:

يقوم هذا القسم على دراسة موضوع واحد من موضوعات السيرة النبوية، ويستخرج دلالاته ومعانيه وحكمه، ويستلهم منه الدروس والعبر والقيم والهدايات والسنن.

كالهدايات المرتبطة بالتزكية أو الدعوة أو السياسة أو الأخلاق أو القيم أو الأسرة والحضارة والأمة والعمران، أو السنن الإلهية أو غير ذلك..

فهذا المنهج يقوم بدراسة موضوع من موضوعات السيرة النبوية وتحليله؛ من أجل استخراج دلالاته ومعانيه وحكمه وهداياته، واستلهام دروسه وعبره وسنن الله فيه.

وتأسيسًا عليه فنحن في حاجة إلى هذا المنهج، من أجل مواجهة تحديات العصر وتجاوز عقباته، وإن أي ضمور في هذا المنهج من شأنه أن يشكل عائقًا فعليًّا أمام تقدم الأمة..

رابعا: المنهج الصوفي:

التصوف نزعة إنسانية معبرة عن شوق الروح إلى التطهر والتزكي، ورغبتها في الاستعلاء على قيود المادة وكثافتها، وسعيها الدائم إلى تحقيق العروج الروحي والكمال الأخلاقي، تخليًّا وتحليًا وتجليًا.

وقد عُرف عن الصوفية الكرام احتفاؤهم بالجمال النبوي وجلاله وصفاته وشمائله وأخلاقه ﷺ، وتعظيم حقيقة نبوته ورسالته، حيث تنوعت كتبهم في مآثر قصصه وفضله وأهل بيته.

هذا، وقد تناول الصوفية الكرام السيرة النبوية بنفَس خاص، وقد جعلوا معرفة السيرة النبوية منطلقًا أو وسيلة إلى توحيد الله تعالى ومحبته. ومنشأ الإيمان عندهم متوقف على حب سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعرفته ومعرفة سيرته ورسالته وقدر نبوته وجاهه العظيم، وكتاباتهم في السيرة النبوية تهدف إلى إبراز الحقيقة المحمدية، وتجلياتها.

وعلى هذا النهج سار معظم الصوفية الذين كتبوا في السيرة من أمثال: «الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي»، «والإمام عبد الكريم الجيلي»، «والشيخ النبهاني»، و«الإمام البوصيري»-رحمهم الله- وغيرهم كثير ممن كانت «الحقيقة المحمدية» هي مبدأ القول عنده في السيرة النبوية، وقد اختلف في أي واحد من الصوفية كان سباقا إلى القول بهذه الحقيقة.

والكتابات الصوفية في السيرة النبوية الخالدة ليست على نسق واحد، فبعضها كما سبق القول، وبعضها الآخر لم يخرج عن المناهج السابقة الحديثية والتاريخية والموضوعية.

خامسا- المنهج الأدبي:

جبل العرب بفطرتهم على حب الشعر وتذوقه وقرضه وحفظه. ولما كانت السيرة النبوية من أحب المواضيع إلى قلوب المسلمين؛ فقد حظيت بكثير من الاهتمام والحب والتعظيم، وليس أدل على ذلك من الكم الهائل من المنظومات الأدبية التي اهتمت بهذا الجانب، وسيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي خير ما يقرأ في المحافل، والتراث الإسلامي زاخر بعشرات القصائد المدائح النبوية والأعمال الأدبية والنثرية في سيرة الحبيب المصطفى -عليه الصلاة والسلام- التي استوعبت أحداث السيرة الشريفة.

سادسا- المنهج الشيعي:

يقوم هذا المنهج على توظيف جملة من مرويات السيرة النبوية من أجل إثبات معتقداته، وإثارة مجموعة من الشبهات حول الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وبعض أمهات المؤمنين- رضي الله عنهن-.. فكان هذا المنهج مشوبًا بعدة اختلالات ومغالطات وأخطاء منهجية - أبعدته عن الموضوعية العلمية-..؛ منها عدم الاهتمام بسند المرويات، وبيان صحيحها من سقيمها، إضافة إلى اعتماده على كتب مذهبية خاصة، لا تعتمد الإسناد والصحة والتسلسل بين الرواة.

وقد يعتمد هذا المنهج على تأويل بعض آيات القرآن الكريم وتحريف معانيها، لتوافق معتقداته.. أما السنة النبوية فقد اقتصروا فقط على الروايات التي توافق مذهبهم، وتركوا الباقي، مع اعتمادهم على روايات موضوعة أو متروكة أو بلا سند في تأكيد معتقداتهم المذهبية في قضايا الإمامة والعصمة

والوصية وثلب الصحابة وأمهات المؤمنين.. وقاموا برد جمهرة من الروايات الصحيحة، واستعاضوا عنها بقول أئمتهم.

وهناك استثناءات من بعض الكتابات الرصينة التي التزمت الحياد، ولم تثلب الصحابة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- ولا أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن-، ونقلت الروايات التاريخية كما هي.

سابعا- المنهج الاستشراقي:

يعرف المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي -رحمه الله- الاستشراق بقوله: «إننا نعني بالمستشرقين الكُتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية، وأن صفة مستشرق ينبغي أن تقتصر على من ليس شرقيًّا، لأنها تصف حالة طلب لشيء غير متوفر في البيئة التي نشأ فيها الطالب[٦]».

لقد سلك المستشرقون في دراسة السيرة النبوية مسالك متعددة أغلبها تنكبت الموضوعية والعلمية.. ؛ فمن ذلك إسرافهم في استخدام المناهج الغربية المادية في البحث، وإخضاع السيرة النبوية لها تعسفًا وقسرًا، والاكتفاء ببعض آي القرآن الكريم مصدرًا للسيرة النبوية مع نزع القدسية عنها.

أما تعاملهم مع روايات الحديث فيتم بتجاهل كتب الصحاح والسنن، وتقديم كتب الأدب والشعر عليها، مع اعتماد الروايات المكذوبة والضعيفة والإسرائيليات التي توافق وجهة نظرهم... هذا بالإضافة إلى تغليبهم للهوى وخلفياتهم الدينية والفكرية على المنهج العلمي، حيث يردون وقائع القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والروايات الصحيحة لمجرد مخالفتها لأهوائهم ومعتقداتهم النصرانية وعاداتهم الغريبة، لذلك نجدهم ينكرون المعجزات الواردة في السيرة الشريفة جملة وتفصيلا.

المنهج الاستشراقي يشوبه الخلل والاضطراب لعدة أسباب، أهمها:

- ضعفهم في اللغة العربية من الناحية الأدبية والفنية.
- ضعف اعتمادهم على المصادر العربية الأصلية (القرآن الكريم، الحديث النبوية، كتب السير والمغازي...).
- طعنهم في الوحي القرآني، والنبوة والرسالة.
- حقدهم الشديد على الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام.
- التنصير والتعصب، والتراكمات التاريخية.

وعليه فإن الخلل الذي اعترى كتابات المستشرقين في السيرة النبوية نابع أساسًا من عدم إيمانهم بعقيدة التوحيد، وعدم اعترافهم بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وعدم إيمانهم بالغيبيات، وعدم تصديقهم بالقرآن الكريم الذي نزل به الوحي الإلهي على المصطفى الأمين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن هذه الكتب:

- «حياة محمد» للمستشرق البريطاني رونالد بودلي (R. V. C. Bodley).
- «حياة محمد وتعاليمه» للمستشرق النمساوي ألويس سبرنجر (aloys sprenger).

- «محمــد في مكــة» و «محمــد في المدينــة» للمستـشــرق البريطـاني وليـام مونتغمـــري وات (W. Montgomery Watt).

- والمستشرق اليهودي إجناتس جولدتسيهر (Ignác Goldziher) ودراساته عن النبي ﷺ. وغيرهم كثير..

ثامنا- المنهج التغريبي:

لقد نجح المستشرقون المتأخرون في استمالة بعض عقول المنتسبين إلى الإسلام الذين انخدعوا بالغرب وبدراسات المستشرقين حول الإسلام، فساروا على نهجهم في الطعن في الإسلام، وبث الشبهات والشكوك حول سيرة خير الأنام - عليه الصلاة والسلام-، ودعوا إلى الانسلاخ من القيم النبوية، وسعوا في مسخ الهوية الإسلامية، وتفريغ الأمة من قيمها واعتزازها بتاريخها وعقيدتها؛ حتى تصبح أمة منصهرة في قوالب الغرب؛ فتكلموا بأفكار المستشرقين، ورددوا مزاعمهم الباطلة، وشبهاتهم المضللة، فكانت كتاباتهم انعكاسًا للمستشرقين وأفكارهم..

وتأسيسًا على ما تقدم فإن المنهج التغريبي: منهج غربي مادي صرف، حاول تحليل وقائع السيرة النبوية الطاهرة تحليلا ماديًا، منقطعًا عن الوحي والغيب.. فهو منهج قائم على إنكار الغيبيات والمعجزات والنبوة والوحي الإلهي والرسالة.

ولم يقتصر المنهج التغريبي والحداثي والماركسي على تشويه السيرة النبوية العطرة، وإنما بثوا أقلامهم المسمومة حتى في العلوم الإسلامية الأخرى.

خلاصة القول:

إنَّ فهم السيرة لا يتم إلا وفق منهج كلي شمولي يدرس الإسلام ضمن حركة التاريخ الإنساني والرسالات السماوية لهداية البشرية.

إن المنهج العلمي الصحيح هو الذي يجمع بين العلم والعدل في الرواية، ويعظم الوحي والنبوة والرسالة، ويستحضر البعد الغيبي في وقائع السيرة النبوية الخالدة، ويتوسل بالعلوم الموصلة والسنن الاجتماعية والمناهج الحديثة في العلوم الاجتماعية للاسترشاد بها في فهم التشكلات الكبرى في التاريخ، والعوامل الأساسيَّة التي أثَّرت في الأحداث والوقائع الاجتماعيَّة.

إنَّ ما نتحرّاه من دروس السيرة الغراء هو أن تكون قوَّة روحية وإيمانية وأخلاقية تطوي عوارض الزمن فيما تفيض به من حياة إنسانيَّة راقية، وتتحلَّى به من قيم إسلامية سامية يأتم بها المقتدي فيما أنيط بعنقه من أمانة العقيدة والتصور، وأمانة القسط.

* * *

الهوامش:

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، الرامهرمزي، من مقدمة الكتاب.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، أكرم ضياء العمري، ٤٥/١.

(٣) تدريب الراوي شرح تقريب النووي، جلال الدين السيوطي، ج/١، ص٢٧٦-٢٧٧.

(٤) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري،١١/١.

(٥) مصادر السيرة النبوية بين المحدثين والمؤرخين، عبد الرزاق هرماس، ص٧٨.

(٦) مقالة بعنوان : "إنتاج المستشرقين "، مالك بن نبي، مجلة العربي. العدد: ٣٢، ص١٣٠.

خواطـر إسـلاميّــة

بقلم: الدكتور عماد الدين خليل

(١)

مهما قيل في تبرير (الإلحاد)، ومهما ادعي من علمية في إقامته على أسس مقبولة، فإنه لن يعدو أن يكون بلادة وغباء.. بلادة في الإحساس وغباء في قدرة الفكر على تجاوز المحسوس والملموس والمنظور، والإيمان بما وراءها جميعا مما لا تحسه أجهزتنا المحدودة، ولا تمسه الأيدي، ولا تدركه الأبصار.. بلادة في الإحساس الفطري الأصيل بالقوة المتوحدة التي خلقتنا ورعتنا، وستبعثنا ثانية وترعانا، وغباء في طاقة البصيرة على تحطيم جدران النسبيات الزمانية والمكانية والنفاذ إلى المطلق.. إن إنسانا لا يدفعه تفكيره في هندسة الكون المعجزة، وتصميم الحياة المذهل على الأرض، ونسيج الإنسان المعقد الفذ المتشابك، إلى الإيمان بالمهندس والمصمم والصانع لا يمكن إلا أن يكون غبيًّا.. لأن أيما إنسان ذكي لا بد وأن يلمح ويدرك أن وراء هذا الإعجاز والدقة والانضباط إرادة لا تدع للصدفة أن تعبث بها أو تشلها عن العمل أو تنحرف بها شعرة واحدة عن مساراتها المرسومة في علم الله.

من أجل ذلك وصم الله الكفار في كتابه الكريم بأنهم كالأنعام؛ بل هم أضل. ذلك أن للأنعام غرائز توجهها وتهديها في مضطرب حياتها ونشاطها وبحثها عن إشباع حاجاتها.. أما الإنسان فإن تنازله عن ماحية الفكر وذكاء القلب واتقاد البصيرة سيقوده إلى درك التخبط والضياع، حيث لا غرائز أو ضوابط تهديه وتحميه من السقوط إلى أسفل سافلين، هناك حيث يعمى البصر وتنطمس البصيرة ويرين الحس الثقيل على السمع فلا يعود يسمع صوتًا، ولا نداءً.. وحيث يتلمس الإنسان أساليب الهداية والحماية في الأمداء القريبة الملاصقة، تماما كما تفعل الديدان، فيركب بعضها بعضا، ويأكل بعضها بعضًا، ويطوق بعضها بعضًا، ويسد بعضها الطريق على البعض الآخر.. حياة حشرية في دائر ضيقة من الأرض ليس فيها أية نافذة يطل منها الإنسان إلى السماء، أو يمد بصره إلى ماوراء الحفرة حيث النور الوهاج، والآفاق الفسيحة والطموح الإنساني الذي لا يعرف حدًّا يقف عنده.

وإذا كان مصير كالح كهذا لا يقوده (الغباء) وتحدوه (البلادة) فمن إذن يقود ويحدو؟ العلم؟ أم الذكاء؟ وهل لأحد أن يجرؤ فيدعي أن العلم والذكاء يمكن أن يقودا الإنسان إلى تلك الحفرة المظلمة التي تعلو عليها وتسمو عوالم الأبقار والجمال والأغنام؟.

لقد قالها العلماء الكبار مرارا وتكرارًا.. من أن خطواتهم في حقول العلوم المختلفة قادتهم دومًا إلى الاعتقاد الذكي المبصر الخلاق المبدع الذي أعطى كل شيء خلقه، والذي بدونه لا يمكن أن تقوم للكون العظيم، ولا لتكييف الحياة على الأرض قائمة لحظة واحدة من زمان فكيف بملايين السنين؟

ثم.. ألا يكون غبيًّا من يرفض الإيمان بأن وراء هذه الفرصة القصيرة في حياتنا الدنيا وجود أبدي لا آخر له، ويسعى باختياره البليد إلى دائرة التشاؤم والفناء المقفلة حيث يعيش الإنسان ويموت، كما تعيش الحشرات وتموت، دون أي اعتبار لتميز الإنسان وتفرده على سائر المخلوقات؟

ألا إنه الغباء بعينه، ويرين بضبابه الكثيف على البصائر والأفئدة والعقول فيهبط بأصحابه إلى دركات الضلال .. وصدق الله العظيم عندما يقول (أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ!!).

(٢)

يمكن تعريف (الإسلام)، باختصار وتركيز بالغين، بأنه: إعادة لصياغة الإنسان ووضعه في مكانه الصحيح من الكون.. الإنسان الذي تعرضه حركة تاريخه الذاتي والخارجي إلى أن يخرج مرات ومرات عن إطار فطرته الأصيلة المعجونة بإعجاز من الروح والمادة والفكر والدم والأعصاب والوجدان والعواطف والشهوات، وتبعده بالتالي عن مساره المرسوم في العالم.. ولا يكون نتيجة هذا الخروج والإبعاد، إلا تمزقـًا في الذات البشرية وانحرافًا في طرائق تعاملها مع العالم، ومن ثم شقاء وتعاسة وانهيار..

ويجيء قادة الفكر الوضعي لكي يصنفوا المبادئ ويرسموا الشرائع ليتعامل معها الإنسان المنكود، معتقدين أن طاقاتهم النسبية المحدودة ستمكنهم من رؤية شاملة موضوعية لفطرة كل إنسان، ولدور كل آدمي على سطح الأرض.. ومن ثم تجيء محاولاتهم ضربًا في التيه، وإبحارا في الظلمات دون شراع واحد ولا بصيص من نور.. فيزداد الإنسان نأيا عن توازنه الفطري الأصيل، ومروقا عن دربه المستقيم في قلب العالم.. وهذا النأي والمروق يجمد طاقات الإنسان، ويطمس على بصيرته، ويغطي قلبه وإحساسه بريق من التراب والغبار، ويشل فاعليته، فلا يقدر بعد على أداء دوره (كاملا) على مسرح الحياة الدنيا، فيفقد بذلك فرصته الكبرى، ويكتب على نفسه التعاسة في الأرض والسماء!!

أما (الإسلام) فإنه تخطيط العلي القدير العليم لإعادة الإنسان إلى فطرته التي فطره الله عليها، وبعثه في طريقه المرسوم لكي يحيا تجربته البشرية كاملة، ويعطي كل ما عنده، ويعبر عن شتى طاقاته من أجل أن يسهم إسهامًا فاعلا في (إعمار) الأرض الذي أنيط به كخليفة مسؤول أمام الله..

ومهما سعى العبيد وحاولوا، فسوف لن يزيدوا الإنسان إلا تخبطًا وضياعًا، وسوف لن يحكموا على طاقاته وقدراته إلا بالتشتيت والاضمحلال.. ولن

يكون الخلاص إلا بإشارة من الذي صنع الإنسان نفسه، ومنحه فرصة الاختيار والعمل في كون شاسع واسع يضيع فيه ويتحطم كل من لم يعرف موقعه المحدد على الخارطة الأبدية، وطريقه المرسوم في بنيان العالم.

(٣)

في القرآن الكريم نداء عميق، لو تمعنا فيه قليلا لأدركنا أنه أروع نداء يمكن أن يوجه إلى الإنسان من أجل أن يرتفع فوق مستويات الخوف والحزن: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

إن جل آلامنا ومخاوفنا وأحزاننا ومآسينا تنفجر حين تنفجر من إحساس ثقيل مرهق بأن فرصة ما قد فاتتنا، وبأن فرصة ما ستفوتنا عما قريب.. فيسحقنا الندم، ويشلنا الحزن عن الانطلاق الدائم صوب الأمام، من أجل أن نحظى بمزيد من الفرص، ونتحقق بمزيد من الانتصارات..

إن الأسى على فوات شيء أوفرصة ما، غل ثقيل يأسر الإنسان ويرتد بوعيه إلى الماضي لكي يسفح عند نصبه الدموع ويستل الحسرات دون أن يتاح له أن يخطو خطوة واحدة من أرضية الحاضر صوب آفاق المستقبل.. وإن الفرح الغامر بمكسب وقتي، أو نجاح عابر، سيعقبه – إن آجلا أو عاجلا – حزن عميق على انعدام الفرح وزوال النجاح..

ومن ثم سيظل الإنسان في نقطة التمزق بين الأسى والحزن إلى أن تنصرم سني عمره، ولا يشعر بمأساة حياته الشقية إلا عندما ينظر، وهو في آخر الدرب، إلى أن كل أحزانه ومخاوفه عبر حياته جميعًا لم تكن إلا عبثا لأنه سوف لن يأخذ معه إلى الحفرة سوى الفرح الكبير أو الحزن الشامل الذي لا علاقة له من قريب أو بعيد بهذه الجزئيات الصغيرة التافهة التي تعترض حياة الإنسان، فإذا ما أفلتت من يديه ملأته أسى، وإذا ما تراكمت بين يديه أترعته فرحًا لا يلبث أن يغور بعد إذ تتكشف له هذه الجزئيات عن فقاعات لا دوام لها إلا بقدر ما تخدع الإنسان وتلهو به..

من أجل ذلك ينادينا القرآن ألا نأسى على ما فاتنا ولا نفرح بما أتانا كي نتجرد عن الجزئيات الثقيلة ونرتفع على مستوى الاهتمامات الزائلة.. ولا نرنو إلا إلى الفرح الكبير الأبدي العميق الذي لا يتحدد بماضٍ أو حاضر أو مستقبل، ولا يتعرض للزوال.. ومن ثم نطلق بخفة وحيوية، متخلصين من الأثقال والهموم والأحزان، لنعبر عن وجودنا المتوثب الطموح.. ونصنع مصائرنا التي تناغينا وتنادينا من بعيد..

إن كثيرًا من الكتاب والفنانين المعاصرين صوروا لنا شقاء الإنسان الذي تشده أثقال ماضيه وتطارده لعناته.. وآخرون كتبوا لنا عن تشاؤمهم العميق إزاء إمكانية تحقق الفرح الإنساني، وتجاوز مستويات الحزن والخوف.. لكن كلمات من القرآن تبين لنا بوضوح وتركيز كل ما يريده هؤلاء، وتزيد عليهم بأن تمنحنا القدرة على التخلص من أثقال

المـاضي وتجـاوز تجارب الفـرح الزائـل التـي تعقـب حـسرات ودموعًـا، والنفـاذ إلى المـستقبل متخففـين متجردين يغمرنا الفرح الحقيقي الكلي العميق واليقين بأن هذه الجزئيات مكتوبة علينا لكي تعلمنا القدرة على التجاوز والانطلاق.. ويوحدنا نداء الله سبحانه الذي يعـرف كيـف ينتـشلنا مـن ليـالي حـسراتنا وأحزاننـا ويقترب بنا من الفجر الوضاء الذي لا غياب لشمسه لأنها تفجر نورها وأشعتها في القلوب والأرواح..

(٤)

إن الذي يطلع على بعض صور الحرب والصراع في الغـرب والـشرق كتلـك التـي تجـدها مشخـصة واضحة في رواية مركريت ميتشل (ذهب مع الريح) التي تتناول فترة الحرب الأهلية الأمريكية في النصف الثاني من القرن الماضي أو في رواية تولستوي (الحرب والسلام) التي تتناول عصر نابليون بونابارت، أو في روايـة ميخائيـل شـولوخوف (الـدون الهـادي) التـي تتناول فترة المقاومة القوزاقية للجيش الأحمر.. الذي يطلع على أعمال تصويرية كهذه، وغيرها كثير، ويقارنه بأساليب الحرب والقتال في تاريخنا الإسلامي وبخاصة سني العقيدة والالتزام، يجد شيئا عجبًا يثير الدهشة والاستغراب..

إن ثمة فرقًا شاسعًا بين إنسان وجماعات وأمم تقتتل باسم المصالح والعصبيات والأهداف القريبة الزائلة وبين أمة تقاتل باسم الله سعيًا وراء كل ما هـو إنساني أبـدي بعيـد عـن المـصالح والعـصبيات والقـيم الزائلـة.. فرقًـا شاسـعًا بـين جماعـات تقتـل وتـذبح وتفتـك وتـدمر مـستخدمة أي سـلاح تـصل إليـه أيـديها، متذرعـة بأيـة وسـيلة تـسندها في سـحق غريمهـا، سـالكة أي درب يـصلها إلى أهـدافها، وبين أمة لا تمارس القتال إلا بالسلاح الشريف والوسيلة الإنسانية وعلى درب مستقيم لا تنحرف فيه يد كي تحمل سلاحًا لا يقره الإنسان الشريف أو تستخدم أسلوبًا تربأ عنه حتى عوالم الحشرات والديدان.

إن منـاظر القتـل والـدمار التـي يعرضـها علينـا (تولـستوي) و(ميـشيل) و(شـولوخوف) وغـيرهم تـضعنا وجهًـا لوجـه أمـام ابتـذال الحيـاة الإنـسانية ورخـص الـدم البـشري ومجانيـة العلاقـة بـين القـوى المتـصارعة عـلى ظهـر البـسيطة.. وتـدفعنا دفعًـا إلى زاويـة الاحتقـار والتـشاؤم والالتـصاق بالعـصبيات المـصلحية والطبقيـة أو العنـصرية، عليهـا تحمـى القطعـان الهاربـة مـن الجـزارين العتـاة الغـلاظ، أو تمنحها سلاحا أحدّ قطعًا وأشد فتكا..

لكـن الـذي يعـزي الإنسان ويهبه الثقة والأمل واليقين أن في التاريخ صورًا (واقعية) أخرى شهدتها ميـادين الـصراع وسـاحات الحـرب مـرات ومـرات، ظـل فيهـا ابـن آدم إنسانًا حتـى وهـو يقاتـل ويحـارب ويصارع، دون أن يضطره القتال والحرب والصراع إلى أن ينقلب على آدميته ويستعير من عوالم الفهـود والحيات كل شراستها وسمها الزعاف دون أن يأخذ منهـا ولا مقـدارًا ضـئيلا مـن العطـف والسماحة التي تمارسها بين الحين والحين..

واقرؤوا إن شئتم (ذهب مع الريح) و(الدون

الهادي) و(الحرب والسلام)، ثم تمعنوا بعد ذلك في صفحات الحرب في تاريخنا الإسلامي عبر مسيرته.. الطويلة.. فسوف تلتقون في المرة الأولى برخص الإنسان وحقارته ومجانية الدم الإنساني وابتذاله.. وسوف ترون في المرة الثانية رأي العين غلاء الدم وشرف الإنسان وكرامة بنيان الله في الأرض.. ملعون من هدم بنيانه..

(٥)

ما أشد حاجة المسلم المعاصر القلق المتأرجح بين الانفصال عن المجتمع الجاهلي الذي يحيا في قلبه وبين الاندماج فيه، ما أشد حاجته إلى من يهديه سواء السبيل ويحدد له معالم الطريق.. ذلك أن الانفصال الكلي أمر مستحيل لأنه فوق طاقة إنسان يحيا في صميم مجتمعات القرن العشرين بكل ما تحويه وتتضمنه من تعقيد وتشابك في العلاقات ومن اتساع في خطوط وأمداء التعامل الاجتماعي بالنسبة لكل المنتمين إليه .. وأما الاندماج الكلي فهو أمر مستحيل كذلك لأنه سيفقد المسلم تميزه كمسلم، وسيصهر قيمه ومعتقداته ومثله في أتون تجربة اجتماعية لا تعرف شيئا عن القيم والمثل، ولا تؤمن يوما بفكرة تعلو على مستوى الوقائع والمصالح واليوميات، ولا بعقيدة ترفض أن تغدو العلاقات الاجتماعية علاقات منفعة متبادلة وحرص قتال على التكاثر.. باختصار أن الاندماج الكامل سيجرد المسلم من إسلاميته وسيحيله إنسانا عاديًّا تافهًا حتى لو صام الدهر لله وصلى في اليوم خمسين مرة!!

إن الانفصال الكلي يعود بالمسلم، شاء أم أبى، إلى ظواهر الترهبن والانسلاخ السالب عن مجرى الحياة والتطور، أو إلى تجربة من تجارب اللانتماء التي عرفها الغربيون خلال العقود الأخيرة، وهي جميعا لا يمكن إلا أن تشل المسلم عن العمل، وتحرم الحياة الواقعية من أن ترفدها قيم الإسلام، وعقائدياته وأخلاقياته، وتتجه ببعض مساحاتها على الأقل صوب مطالب الإسلام وحلوله المعجزة..

والاندماج الكلي يقود المسلم إلى ظاهرة من ظواهر الغناء والذوبان في إطار التجربة الاجتماعية بكل انحرافاتها وتناقضاتها ومآسيها، أو إلى تجربة من تجارب الانتماء (الشيء) إلى عمل ما من أعمال هذا المجتمع الوظيفية اليومية، أو إلى هدف ما من أهدافه القريبة الميسورة.. ومن ثم كان هذا التأرجح وهذا القلق اللذان يعانيهما المسلم المعاصر، واللذان يجب أن نعترف بثقلهما وضغطهما علينا جميعا كي نكون أكثر واقعية وأشد إيجابية، فنسهم جميعًا في العمل الجاد المخلص والتنقيب في ثنايا فكرنا وعقائدنا وتشريعاتنا وتاريخنا وحضارتنا، علنا نصل إلى الحل الوسط الذي يحملنا كمسلمين حقيقيين إلى قلب كل مجتمع لكي نؤثر في صميم بنائه وتركيبه، ونهيئه لتقبل القيادة العادلة المستقيمة التي وعد الله بها عباده المخلصين يوم أن قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ۝﴾.

وصدق الله العظيم.

من تاريخ الجامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبند

(الحلقة ٩٨)

بقلم: الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه الله-
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري(*)

تراجم خريجي دارالعلوم/ديوبند:

٥- الشيخ عبد الله الأنصاري الأنبيثوي:

أصله من «أنبيثه» في مديرية «سهارن فور». التحق بدارالعلوم/ديوبند عام ١٢٨٥هـ، وتخرج منها عام ١٢٨٧هـ، تلقى مبادئ العلم على العالم الجليل في عصره وهو الشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله، ولازم شيخ المشايخ الحاج إمداد الله المهاجر المكي مدةً طويلةً في مكة المكرمة. وقرأ عليه خلال ذلك «المثنوي» لمولانا الرومي، ونال الخلافة منه.

ولي رئاسة التدريس في مدرسة «منبع العلوم» في «كلاؤتهي» حين أنشأها المنشي مهربان علي عام ١٢٨٧هـ، ثم استقدمه السير السيد أحمد الراحل عام ١٣١١هـ/١٨٩٣م إلى «علي كره» ونصبه مديرًا للعلوم الدينية في كلية «إيم أو» (M.O. College) آنذاك والتي تحولت فيما بعدُ «جامعة المسلمين/ علي كره». وكان ولده الآخر الشيخ محمد ميان منصور الأنصاري عضوًا بارزًا في الحركة السياسية التي شنَّها شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، وأما ولده الشيخ حامد الأنصاري الغازي فهو من الصحفيين المشاهير في الهند.

توفي الشيخ عبد الله الأنصاري في «أنبيثه»، وحدد كتاب «نزهة الخواطر» عام وفاته ١٣٤٤هـ، ولايصح، وإن لم نعرف السنة التي توفي فيها بالتحديد؛ إلا أنه من المؤكد أنه توفي قبل عام ١٣٤٤هـ بمدة طويلة. ودفن الشيخ في مقبرة آبائه في «أنبيثه»، وكان تزوج البنت الكبرى للشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله.

٦- الشيخ محمد مراد الفاروقي المظفرنغري:

ولد عام ١٢٦٢هـ/١٨٤٥م في قرية مجاورة لـ«باك بتن»، وكان في الجيل الثامن عشر من البابا فريد الدين كنج شكر. مات أبوه وهو ابن أربع سنوات. فأخذه هو وأمه خالُه إليه. ولما بلغ سن الوعي عنَّفه خاله على الإعراض عن الدراسة، فحزن، وخرج من بيته من غير استئذان عام ١٢٧٩هـ إلى «لاهور».

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

وتلقى بها الأردية والفارسية. ثم عاد من «لاهور» إلى «دهلي» وأخذ عن الحافظ غلام رسول الملقب بـ«ويران» مبادئ كتب العربية. ثم سافر إلى «علي كره»، وانضم إلى حلقة المفتي لطف الله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- الدراسية، كما قرأ بعض الكتب على الشيخ إرشاد حسين في «رامفور» أيضًا. وفي نهاية المطاف جذبته دارالعلوم إليها. وكان الشيخ محمد مراد من أوائل طلاب دارالعلوم/ ديوبند. قضى بها خمس سنوات، وتخرج منها عام ١٢٨٨هـ.

احتل مكانة بارزة أيام دراسته بما أوتيه من الكفاءة الطبيعية، والذكاء والاجتهاد غير العادي في تحصيل العلم، والاستعداد العلمي. بايع الشيخ محمد قاسم النانوتوي ونال منه الخلافة. ودشَّنَ الشيخ النانوتوي عام ١٢٩٤هـ مدرسة في المسجد الجامع المعروف بـ«جامع حوض والي» في «مظفرنغر»، فنصبه رئيسًا لهيئة التدريس بها، ثم عرفت هذه المدرسة فيما بعد بالمدرسة المرادية، ولازالت تقوم بنشاطاتها.

قضى الشيخ محمد مراد حياته كلها في التدريس والإفادة، ونذرها للرقي بالمدرسة ورفع مستواها. وتزوج في عائلة «باره سادات» في «مظفرنغر» نفسها. وقام بالتدريس أربعة عقود في المدرسة المرادية. توفي في ٣/رجب عام ١٣٣٢هـ/١٩١٤م حين أذان الجمعة، ودفن في حرم مسجد «شاه إسلام» في «مظفر نغر». تزوج ابنه الأصغر المولوي محمد رشيد الفريدي البنتَ الكبرى للشيخ محمد طيب رئيس دارالعلوم/ديوبند.

٧- الشيخ خليل أحمد الأنبيثوي رحمه الله:

أصله من «أنبيثه»[1]، ولد عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م، وينتهي نسبه إلى سيدنا أبي أيوب الأنصاري -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-. وكان سبط أستاذ الأساتذة الشيخ مملوك العلي -رحمه الله-، وابن أخت الشيخ محمد يعقوب النانوتوي -رحمه الله-. بدأ القراءة وهو ابن خمس سنوات على جده للأم، ثم قرأ القرآن الكريم في وطنه وتلقى دراسة الأردية والفارسية في «أنبيثه»، و«نانوته». وتلقى مبادئ كتب العربية على عمه المولوي أنصار علي- والد الشيخ عبد الله الأنصاري الغازي-، كما أخذ بعض الكتب عن العالم الشهير في قصبته وهو المولوي سخاوت علي، ثم أُلحق بالمدرسة العصرية لدراسة الإنجليزية. وأُنشئت دارالعلوم/ديوبند إبان ذلك. وكان خاله الشيخ محمد يعقوب رئيسًا لهيئة تدريسها، فألحق بدارالعلوم عام ١٢٨٥هـ[2]. وكان يقرأ يومئذ كتاب «الكافية». قرأ في دارالعلوم كتاب «شرح تهذيب» وغيره ثم غادرها إلى مدرسة مظاهر علوم /سهارن فور، فقرأ بها الحديث والتفسير والفقه والعقائد والكلام وغيرها ثم عاد إلى دارالعلوم عام ١٢٨٩هـ، وقرأ بها كتب المرحلة العليا في المنطق والفلسفة والأدب والتاريخ، وتخرج في العلم، وحفظ القرآن الكريم في سنة واحدة إبان دراسته، وقرأه في صلاة التراويح في المسجد.

ولي التدريس في مدرسة مظاهر علوم/سهارن فور بعد ما أكمل دراسة العلوم في دارالعلوم/ ديوبند، وكان يتولى المولوي جمال الدين منصب «مدار المهام» في «بهوبال»، فرغب أن يولي الشيخ محمد يعقوب منصبًا ذا راتب مرموق في الولاية، إلا أن الشيخ أبى أن يغادر دارالعلوم/ديوبند، ثم أُرسِل الشيخ خليل أحمد لولاية هذا المنصب بإصرار من «مدار المهام»، إلا أنه ملَّ مدينة «بهوبال»، ولم يمض إلا أشهر حتى سافر منها للحج، ولما عاد منه أرسله الشيخ محمد يعقوب النانوتوي إلى «بهاولفور». وأراد الحج مرة أخرى عام ١٢٩٧هـ، فكتب الشيخ محمد يعقوب الكنكوهي – الذي كان بايعه الشيخ خليل أحمد– إلى الحاج إمداد الله المهاجر المكي: «هذا خليل أحمد قادم عليك، وسوف يثلج فؤادك حين ترى أحواله». فلما رأى الحاج إمداد الله أحواله الباطنية سُرَّ سرورًا عظيمًا، ونزع عمامته عن رأسه ووضعها على رأس الشيخ خليل أحمد، وكتب له الخلافة، ثم وقَّع الشيخ الكنكوهي أيضا هذه الإجازة فيما بعد.

ولما عاد من الحج ولَّاه الشيخ الكنكوهي رئاسة هيئة التدريس في مدرسة مصباح العلوم/ بريلي، ثم عُيِّن مدرسًا في دار العلوم/ديوبند عام ١٣٠٨هـ، ثم تحول منها إلى مدرسة مظاهر علوم/ سهارن فور رئيسًا لهيئة تدريسها عام ١٣١٤هـ. ونُصِبَ مديرًا لمدرسة مظاهر علوم عام ١٣٢٥هـ، ثم هاجر في آخر عمره عام ١٣٤٤هـ إلى المدينة وأقام بها.

كان – على تمكنه من العلوم المتداولة كلها– له ولع عظيم بالحديث النبوي، وهذا ما حَدَا به إلى أن يعمل شرحًا على سنن أبي داود سماه «بذل المجهود» في خمسة مجلدات. ويعتبر كتاب «بذل المجهود» عملا عبقريًّا من أعماله في الحديث النبوي، وله أعمال دون ذلك. بدأ العمل على كتاب «بذل المجهود» عام ١٣٣٥هـ، وانتهى منه عام ١٣٤٥هـ في المدينة المنورة. و أصيب بالفالج في ١٥/ربيع الآخر عام ١٣٤٦هـ، وتوفي بالمدينة المنورة، ودفن بجوار سيدنا عثمان ذي النورين رضي الله عنه.

٨– شيخ الهند محمود حسن الديوبندي:

شيخ الهند محمود حسن أول طلاب دارالعلوم /ديوبند، وهو الذي قيل فيه: «هو أول من فتح الكتاب على الأستاذ». ولد شيخ الهند رحمه الله عام ١٢٦٨هـ/١٨٥١م في مدينة «بريلي» حيث كان والده الشيخ ذو الفقار علي يشتغل في مصلحة التعليم الرسمية. وبدأ الدراسة على عمه الشهير الشيخ مهتاب علي رحمه الله، وكان يقرأ كتاب «القدوري»، و«شرح التهذيب» إذ أنشئت دارالعلوم /ديوبند، فالتحق بها، وأكمل المنهج التعليمي المتبع في دارالعلوم، ثم أخذ الحديث عن الشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله. وقرأ بعض كتب الفنون العليا على والده. وأناط الشيخ النانوتوي عمامة الفضيلة برأسه عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م[٣]. وكان يُعدُّ إبان دراسته من أبرز تلامذة الإمام النانوتوي،

الذي كان يعطف عليه عطفًا كبيرًا. ونظرًا إلى كفاءته العلمية والعقلية العالية اختاره المشايخ للتدريس في دارالعلوم/ديوبند، وتم تعيينه مدرسًا في الدرجة الرابعة بدارالعلوم عام ١٢٩١هـ/١٨٧٤م، ثم تدرج في الرقي حتى عُيِّن رئيسًا عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م.

بجانب ظاهر علمه وفضله كان يزدان بالفضل الباطني، فنال الخلافة من الحاج إمداد الله المهاجر المكي رحمه الله. وكان راتب رئيس هيئة التدريس يومئذ (٧٥) روبية، ولكنه لم يقبل قط إلا (٥٠) روبية، وكان يتبرع بـ(٢٥) روبية لصالح دارالعلوم/ ديوبند. وأعانت شخصيته العلمية الفذة على ارتفاع عدد الطلاب من (٢٠٠) إلى (٦٠٠). وتخرج على عهده (٨٦٠) طالبًا في الحديث النبوي. وأخرج مجموعة شهيرة بارزة علمية من تلامذته، منهم: السيد الشيخ محمد أنورالشاه الكشميري، والشيخ عبيد الله السندي، والشيخ منصور الأنصاري، والشيخ حسين أحمد المدني، والمفتي كفايت الله الدهلوي، والشيخ شبير أحمد العثماني، والشيخ السيد أصغر حسين الديوبندي، والسيد فخر الدين أحمد ، والشيخ محمد إعزاز علي الأمروهوي، والشيخ محمد إبراهيم البلياوي، والشيخ السيد مناظر أحسن الكيلاني رحمهم الله.

وكان كثير من الطلاب الأكفاء الأذكياء – ممن استفادوا من أساتذة كثيرين- يرجعون إليه، و يعرضون عليه شكوكهم وشبهاتهم، فيكشفها لهم بإجابات كافية شافية، ويسمعون على لسانه معاني و مطالب للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وينقادون له ويعترفون بأن ما عنده ليس عند غيره، وبأنهم لم يروا عالمًا محققًا مثله.

هاج المسلمون وماجوا من جراء حرب طرابلس وبلقان في آخر عمر شيخ الهند رحمه الله، فوضع الشيخ خطة رامية إلى القضاء على الحكم البريطاني في الهند، وذلك عام ١٣٣٠هـ/١٩١٣م. وأعدَّ خطة تهدف إلى الإطاحة بالحكم الإنجليزي في البلاد عن طريق الانقلاب المسلح. فوضع لذلك برنامجًا له متقنا محكمًا. وسَعَت مجموعةٌ كبيرة من أصحابه وتلامذته المنتشرين في الهند وفي معظم البلاد خارجها بنشاط وتضحيات لتحقيق خطته الموضوعة. وانضم إليه من تلامذته كل من الشيخ عبيد الله السندي، والشيخ محمد ميان منصور الأنصاري، وغيرهما. وكان هؤلاء وقفوا حياتهم لتحقيق برنامج شيخ الهند السياسي و الثوري. وكان يسود يومئذ اتجاه قائل بأنه يستحيل خروج الإنجليز من الهند من غير استخدام قوةٍ. وهذا يتطلب الجنود والأسلحة. واختاروا لتوفير ذلك كلا من أفغانستان وتركيا.

وسافر شيخ الهند – رغم شيخوخته- إلى الحجاز لتحقيق خطته الموضوعة عام١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م، ولقي بها الوالي التركي: غالب باشا،

وكذلك أنور باشا الذي كان وزير الحربية التركية، وتوصل معهم إلى بعض الأمور الهامة، وكان يود أن يصل من الحجاز مارًّا ببغداد وبلوشستان إلى القبائل الحرة في الحدود ففوجئ بالاعتقال من قبل شريف مكة: الحسين بإيماء من الإنجليز إبان الحرب العالمية، وقام شريف مكة بتسليمه إلى الإنجليز. وكان يرافق شيخَ الهند يومئذ كل من الشيخ حسين أحمد المدني و الشيخ عزير كل، والحكيم نصرت حسين والشيخ وحيد أحمد، وقد طال الاعتقال كلَّهم جميعًا. ونقلوهم أولا إلى مصر، ومنها إلى «مالطه» التي كانت تعد أحصن الأماكن لمجرمي الحرب في الحكومة البريطانية. وسمحوا له بالعودة إلى الهند بعد نهاية الحرب. فوطئ ساحل مومبائ في ٢٠/رمضان عام ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م. وكان وضعه الصحي تدهور، وأنهكت الشيخوخة قواه بعد العودة من «مالطه» إلا أنه ساهم في النشاطات السياسية بكل قوة وإصرار، وحَالَ وضعُه الصحي دون تحمل هذه الأعباء الشاقة، فلما تفاقم الوضع الصحي نُقِلَ إلى الدكتور/مختار أحمد الأنصاري في دهلي لمعالجته ومداواته، وكان يشاركه في العلاج الطبيب أجمل خان أيضًا حتى جاءه الأجل المحتوم في ١٨/ربيع الأول عام ١٣٣٩هـ/١٩٢١م، فلبى نداء ربه، ونقل جثمانه إلى «ديوبند»، ودفن في اليوم التالي بجوار الإمام محمد قاسم النانوتوي قدس الله سره، وغاب عن الأنظار خزينة العلم والمعرفة هذه[٤].

الهوامش:

(١) «أنبيثه» قصبة من القصبات الشهيرة في مديرية «سهارن فور»، تشرف على الشارع المتوجه من سهارن فور إلى «كنكوه»، يُذكر أن «سعد الله بيغ» - قائدًا من قواد الملك فيروز شاه تغلق (٧٥٢-٧٩٠هـ) أنشأها عام ٧٧٤هـ. و«أنبيثه» قصبة خصبة أخرجت رجالا كثيرين. واستوطنها العوائل: الصديقية والفاروقية والأنصارية. واستوطنها في أواخر القرن الحادي عشر الهجري أحد مشايخ الجشتية وهو الشاه أبو المعالي رحمه الله، وكانت زاويته منبعًا للفيوض والبركات، توفي عام ١١١٢هـ. والشيخ خليل أحمد من أولاد بنات الشاه أبي المعالي رحمه الله.

(٢) أشار كل من «تذكرة الخليل»، و«تذكره مشايخ ديوبند» وغيرهما إلى أنه التحق بدارالعلوم عام ١٢٨٣هـ. ولم تنص المصادر على تخرجه من دارالعلوم، إلا أن الشهادة التي أصدرتها دارالعلوم له جاء فيه ما يلي:

«المولوي خليل أحمد من سكان «أنبيثه» سبط الشيخ مملوك العلي رحمه الله التحق بدارالعلوم عام ١٢٨٥هـ، وكان يقرأ آنذاك كتاب «الكافية»، ثم قرأ الكتب المفصلة الآتية في سنة واحدة: «الكافية»، و«شرح الملا جامي»، و«إيساغوجي»، و«قال أقول»، و«ميزان منطق»، و «المرقاة»، و«شرح تهذيب»، ثم أكمل الكتب الدراسية في الحديث والفقه والتفسير والعقائد والمعاني والمنطق في مدرسة سهارن فور بحكم قربها من بلده، ثم عاد إلى هذه المدرسة عام ١٢٨٩هـ، وقرأ فيها شيئًا من «رسالة مير زاهد»، و«شمس بازغة» و المقامات للحريري، وديوان المتبنئ، والحماسة و التاريخ اليميني. وله كفاءة طيبة، وذكاء حاد، ومناسبة تامة.

وأخلاقه وأوضاعه مرضية، مطبوع على الجد.وكان ينوب في تعليم بعض الطلبة، وتخلى عن المدرسة لحاجة المعاش (٢٣/جمادى الآخرة ١٢٨٩هـ. سجل صور الشهادات١/٥).

(٣) التقارير الدورية لدارالعلوم/ديوبند عام ١٢٩٠هـ، ص:١٠.

(٤) يرجع إلى الباب الخامس للاستزادة من ترجمة شيخ الهند رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

البِرّ حُسْنُ الخُلق

بقلم: الشيخ/ علي عبد المنعم عبد الحميد

روى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس».

١- البر حسن الخلق:

البر في اللغة هو التوسع في أعمال الخير. وفي الشرع: كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من صالح الأعمال وفاضل الأخلاق، وهي كلمة قليلة الأحرف. ولكنها كبيرة الأثر، واسعة المعنى، تشمل كل ما من شأنه أن يوصل إلى مرضاة الله عز وجل، وقد وردت آية محكمة في القرآن فصلت أنواع البر التي يعنيها ويدعو إليها الإسلام، ونعت تلك الآية الكريمة على الذين زعموا أن البر هو التوجه إلى جهة مخصوصة في الصلاة، فالتوجه في حد ذاته ليس برًّا، وإنما المقصود منه هو مناجاة قيوم السماوات والأرض، وهكذا أوضحت تلك الآية أن البر هو الإيثار إيثار الغير بالمحبوب من المال، والصلات صلات ذوي الأرحام وغيرهم من بعدهم. قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الآية (١٧٧) من سورة البقرة.

وهنا نمر مرًّا خفيفًا بمعنى ما هدفت إليه تلك الآية، ونخلص منه إلى معنى الحديث الشريف:

تأمل معي قليلا أو أمعن الفكر إمعانا عميقا في أنواع البر التي وردت هنا، ثم راقب الوجود، الكون، الناس، المجتمعات، الحكومات، ثم طبق ما عنته الآية الشريفة على الواقع، ارتقب النتيجة الواقعة بعد ذلك التطبيق، ماذا تجد؟! إذا حصل الإيمان استقرت النفس واستنار الفكر واطمأن الخاطر، وعرف العبد أن له ربًّا وأن ربه لن يضيعه ما دام سالكا الطريق السوي جادًّا غير عابث ولا متقاعس ولا كسول ولا مقصر، والإيمان بالله يستلزم استلزامًا حتميًّا الإيمان بكل ما يصدر عنه لأنه سبحانه واسع عليم قادر حكيم فيجب الإيمان بالبعث وبجنود الله التي لا تحصى وقد سمى بعضها

ملائكـة، وأن الكتـب الـسماوية مـن عنـد الله، وأن الرسل صادقون أعطاهم الكتب لهداية البشر ولتنير لهم دجنة الحياة الحالكة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ (البقرة:١٧٦). ثم يتابع رحلة الإيمان، رحلة البر، فيصل إلى الإيمان الثابت الراسخ القوي بكل ما مر، وإذا استقر في النفس هذا وعرف تماما ننتقل منه إلى ما يمكن أن يصدر عن المؤمن، فالمؤمن ليس غبيًّا ولا غفلا ولا جاهلا، إنما له عقل يستعمله وله فكر فهو يجيل فكره فيما حوله، يرى حينئذ أن الأقدار متفاوتة ولا يمكن أبدًا بحال أن تتساوى أو تتحد كمًّا وكيفًا، أو أن تستقر في درجة واحدة من السمو أو الانحطاط لا يمكن هذا، يعني لا يمكن بكل ما في هذا التعبير من قوة، والماضي والمستقبل والحاضر الملازم، كل يشهد على صدق ذلك فهو حق لا مين فيه، والذي قضى به رب العالمين الذي حكم بهذا التفاوت بين كل المخلوقات اتفقت جنسًا ونوعًا أو اختلفت تعال إلى المقدرات بعيدًا عن الإنسان – تغافل عن الناس لحظة طالت أو قصرت – وجل في كل واد تريد وتستطيع، وأخبر صادقا عن النتيجة، أو هون عليك وخذني رفيقًا لك في الجولان، فلتذق الماء متفاوت المذاق، هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج، ومر بالشجر، هذه مثمرة يانعة الثمار، وتلك جارتها، شريكتها في التربة والسقيا ولكن عاطلة من كل ثمر، والمثمرات جنى بعضها حلو شهي والآخر مر زعاف، هذا نبت لا تفهم منه إلا أنه حمل وعبء على غيره، وذلك ورد وبنفسج له أرج وعطر وشذى، تلك نخلة سحوق، وهذه فسيلة ضعيفة متهافتة، وإذا دققت الفكر وجدت لكل فائدة. ولنمض إلى الحيوان ولا أدلك على تفاوته فتلك سطحيات لا فلسفة فيها ولا عمق، حتى ما كشف عنه العلم بفضل الله، منه ذرة لا تكاد تدرك، وإذا تحركت أردت العالم وأودت به وبحضارته المتعاقبة عبر القرون وإلى جانبها جبل شامخ وعلم رفيع لا يفعل فعلها وإن كان يفاء إلى ظله، ويقيل العابرون في حماه، ماذا بعد ذلك حشرات، هوام، دواب، حرث، نسل، سماء، أرض، في كل تفاوت عجيب لايدركه حصر ولا تصل إلى جمعه معرفة ولا يعلم كنهه كما هو إلا من أوجده من العدم وقال له: كن فكان!!

نعود إلى الإنسان فإذا هو الحاكم المسيطر، وله الحق دون منازع. فالله فضله على كثير ممن خلق، وسخر كل شيء لعلمه وفهمه وبحثه ولدربته واتساع مدى إدراكه. لماذا؟ ليصل إلى الله إلى المعرفة الحقة، فهل يستطيع أن يجعل الكل مالكين أو يحيلهم جميعًا محرومين لا بد من الأزواج ما دامت الحياة حياة، وما دامت للسماء الفوقية وللأرض الفراش والبساط. هل استطاع عالم الاجتماع فلان أو السياسي علان أو الفيلسوف ثالثهم أن يمنع حتى استعمال الكلمة سائل ومسؤول، فقر وغنى، تحدث في قرن مضى اجتماعي فذ في الاجتماع وماذا فعل وماذا رسم من خطى، لا زال المصنع له مالكه وأن

تغير السيد، وله عماله وأن تبدل الاسم، إن كنت تعرف عكسا أو نقيضا فقل لي بربك أين هو؟ أو أخبرني بعلمك أين يوجد؟ ولكن دعني دائما أدلي بحجتي وأفند لك ما زعمت جهلا أنه مساواة وأخطأت فلا مساواة.

إذن: أين العلاج لداء عياء، وما دام هناك داء فليبحث له عن دواء، وإليك الجواب بعد طول حوار:

تقول الآية الكريمة: يا محب المال، أبق عليك مالك، وإمساكه في إنفاقه، فنحن نريد لك الخير ونحب لك دائما ما هو الأفضل نؤثر لك أن تدخر بعض المال لتنتفع به يوم لا ينفع مال مكنوز، ادفع بعضه لتفيء إلى ظل ذلك البعض يوما ما في يوم عبوس قمطرير، صل رحمك ذوي قرباك، رفه عن اليتامى عديمي الحول والطول، ولا تنس العاجز عن العمل، ساعده فهو جزء من مجتمعك، وعضو في أمتك، ومد يدك إلى المنقطع القريب المنبت عن ماله ووطنه، صله بما يوصله إلى مستقره، وما به يأمن طريقه لئلا يهلك فتحاسب على هلاكه حين لات مناص، ومن سألك لا تنهره ولا تحرمه جودك فقليل خير من عدم، وحاول تحرير من حولك حتى تصل الحرية إليك، فالسيد في وسط العبيد عبد حقير، والسيادة الحقة مع السادة الحقيقيين، وخذ لذلك مثلا ما شيئا هينا بسيطا: هذا رجل يعرف كيف يخط اسمه ولا زيادة يعيش في قرية غامرة بعيدة عن الحضارة تلفه موضع تجلة وإكبار بين قوم لا يكادون يفقهون قولا، وتعال به إلى مستوى من العلم أرفع تلفه قد تضاءل وانزوى، وإذا وصل مدينة عالم أهلها بكل ما دق وجل انعكس وضعه وصار جاهلا في عداد الأغمار، فلما طلعت عليه شمس المعرفة ذاب وتلاشى، أما العالم الراسخ فهو الجوال في كل ميدان، المقارع لكل ند وقرن لا يهاب شمسًا ولا يخشى هاجرة، فقل لي ما قيمة من يدعي السيادة مع العبيد؟ لا شيء! وإنما القيمة والسعادة لمن يعيش سيدا مع سادة أحرار، ولهذا دعت الآية الكريمة العظيمة إلى الحرية وبذل المال لفك الرقاب.

وتقدم ذكر المال على الصلاة بيانا لنتائج الصلاة المقبولة فهذه نتائجها تتقدمها، وعلى الزكاة المفروضة لتفيد أنها غيرها وعادت تحث على الربط الوثيق بين العباد، ولا يكون هذا إلا بالحرص على الوفاء بالعهود[١]. وتأتي بعد ذلك مرحلة الاختبار التي يمر بها كل إنسان ولا علاج لهذا الاختبار إلا الصبر عليها ومحاولة النجاح فيها، فمن صبر في البأساء[٢] والضراء[٣] وحين البأس[٤] فهو البر البار فاعل البر وهو الصادق المتقي لله حقًّا.

رأيت مما سبق أن (البر) هو جماع الخير كله، فانظر بعد هذا في حديث رسول الله الحبيب المصطفى - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- حين يقول (البر حسن الخلق) وهل يصدر ما صرحت به الآية إلا عن حسن الخلق، فالخلق الكريم في عرف علمائه: (رياضة محمودة تصدر عنها الأفعال الحسنة في رفق ويسر) وهذا هو الخلق الحسن وهذا هو البر المطلوب.

كن مستقيمًا، محبًّا للغير، عفيفًا، مبتعدًا عن السفاسف، انس نفسك يا أخي في سبيل غيرك تحيا نفسك وتعظم وتسعد ويسعد معك غيرك، أخلص في عملك لأنه عملك ولاك الله إياه، لا تنتظر المكافأة فتهلك إن قلت، وتبطر إن زادت. إذا فعلت حققت الحديث الشريف: (البر حسن الخلق).

٢- والإثم ما حاك في النفس:

من الممكن أن يقال: إن الإثم ضد للبر أو هو نتيجة لترك البر، وعلى أي فالإثم ذنب وبعد عن الصواب المرجى من الإنسان كإنسان، وقد يتكرر الذنب حتى يرسخ في النفس ويصبح عادة ويتعارف عليه الناس ويواقعونه، وهذا هو الشر كل الشر، والعصيان وانتهاك حدود الله والتطاول على شرعه واطراح العمل به، وقد يصل الإثم بصاحبه إلى الكفر حين يتخطى حدود إدراكه، ويستهين بما أنزل الله على رسله، ويعدّ الدعوة إلى أحكام الله عودةً إلى الوراء، وتأخرًا عن ركب الحضارة المتعاونة، ولا يستحيي أن يقول: انظروا أممًا تقدمت ماديًّا، وليست ذات دين! وإلى هؤلاء يساق الحديث أي تقدم وأية حضارة، وأي ازدهار لتلك الحضارة، وأية مدنية واختراع!! ماهي النتيجة للإنسان كإنسان يجب أن يعيش حرًّا له حق في الهواء والماء والكلمة أعتقد وأستطيع الدفاع عن ما أعتقد – أن قائل هذا فج الرأس ضعيف الإدراك سطحي المعرفة لشيء باد للعيان ظاهر لكل إنسان – ولكن للأسف أين هذا الإنسان[٥] ولاوفر عليك مشقة البحث وعناء التنقيب وأخبرك ولا ينبئك مثل خبير، هل تعرف كيف يعيش عمال المناجم؟ هل تدري كم يتقاضون؟ هل أحصيت عدد العاطلين عن العمل؟ هل تدري كيف تعامل تلك الشعوب التي تعنيها؟ أظن لا! وأضع (الظن) هنا في موضعه المنطقي حيث وضعوه في منزلة خاصة مع رفقائه: أشك وأعتقد وأتوهم.. الخ[٦].

قف معي قليلا أمام قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما حاك في النفس) هذه العبارة الشريفة تقدر الإنسان قدره وتضعه في موضعه، في درجته من الإنسانية، في مكانه من الوجود، في وظيفته التي يجب أن تكون له وأن يكون لها، فهو عظيم بين المخلوقات مسيطر في حدود إمكانياته وليس بمتجبر كما يجب أن يكون – يتمتع بلذائذ الحياة وطيباتها في حدود، ولا ينزل إلى سفسافها ودنيئها، فهو على أي إنسان تام التعريف ينطبق عليه القول الشارح الذي وضعه له المناطقة ولهذا كانت له نفس تتألم وتشعر، وتخاف وتخشى، تقدر الأمور وتزن الوقائع، لا تنزل إلى درجة الجماد ولا أقول الحيوان فالحيوان الأعجم له كل الأحساسيس وإن اختلف المقصود منها والداعي إليها، فالأعجم يحن ويئن، ويعطف ويهش، ويغضب ويفرح، ويحزن، وانظر إلى قطتك التي تعايشك إلى كلبك الذي يتبعك، متى يهز ذيله ومتى يكشر عن أنيابه، ومتى تموء مواء المستعطف، ومتى تبرز مخالبها؟

عواطف وشعور يبدو ويلوح، أنت قد تفصح

بالكلام وهي تعبر بالحركة كالأبكم منك سواء بسواء، فالجملة الشريفة (ما حاك في النفس) تعبر عن النفس الخيرة لم تمتها المعاصي ولم ترتد جمادا لا يحس. وهل من الممكن أن ترتد النفس الواعية جمادًا، سؤال توروده طفولة تفكير ويوحي به عدم تبصر. والجواب جد يسير: تعال إلى البلد الذي فتنتك بروقه الخلابة تجد الجواب، تجد نفوسًا انقلبت لديها الحقائق تحت تأثير مذاهب وفلسفات ما لها سند من عقل مفكر ولا من إنسانية عفة كريمة، صارت تلك النفوس صمًّا صلادًا لا تحس، ولا تدرك.. هذه النفوس لا تشعر فليست نفسا كاملة سليمة الفطرة، فإذا، لا يحوك الإثم إلا في النفوس القريبة من الخير، إن زالت فستعود أوابة نادمة.

٣ – وكرهت أن يطلع عليه الناس:

قال علماؤنا الأسبقون –رحمهم الله رحمة واسعة– معنى هذا: «.. العمل الذي تستحي منه ولا تحب أن يراه الناس منك، وذلك أن النفس لها شعور من أصل الفطرة بما تحمد عاقبته وما يذم الإقدام عليه» وضربوا لذلك مثلا بالسرقة والفحشاء.

قال صاحبي: هذا القول ميزان ومقياس، السوي ما وافقه، والانحراف في الانحراف عنه، فالنفس التي يحوك فيها الإثم والتي تكره أن يطلع عليها الناس متلبسة برذيلة هي النفس المتصفة بسلامة الفطرة مع قوة يقين باحترام المجتمع الذي تعيش فيه وتلك خلة محمودة لا يخلو منها زمان ولا مكان، لأن المعايير الإنسانية الأصيلة لا تختلف، فأصول الرذائل معروفة ومتفق عليها أو الإجماع قريب من الاتفاق، لأن نعم ولا لم يتفق عليها في كل المواطن أبدًا وهذا لن يكون، إما لجهل أو تعصب والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقصد النفوس التي تحمل أصول الخير ولم يطغ عليها عامل الشر فنعم الحديث ونعم ما جاء به، ولا أجد ختامًا لهذا القول أفضل من حديث مشابه في الموضوع. فكلام سيد الخلق سيد الكلام عن وابصة معبد رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال جئت تسأل عن البر. قلت: نعم، قال: «استفت قلبك. البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر» رواه الإمام أحمد والدارمي وإسناده جيد.

نسأل الله – جلت قدرته– أن يوفقنا لعمل البر وأن يمن علينا بحسن الخلق وأن يدخلنا برحمته في عباده المخلصين الصالحين.

* * *

الهوامش:

(١) وفي هذا الحديث قد يطول وإن كان في الأجل بقية فسأعود إليه بعون الله وحده.
(٢) الشدة والضيق.
(٣) فقد الأهل والولد.
(٤) في ميدان القتال ولقاء الأقران في النزال والطعان لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.
(٥) أظن أنه الذي كان يبحث عنه ديوجين في وضع النهار بمصباحه المضاء دائما!!
(٦) ولهذا الإجمال تفصيل في حين مقدر.

* * *

كيف انتشر الإسلام فيما بعد فتح مكة؟

بقلم: **الشيخ الجليل المحقق حبيب الرحمان العثماني الديوبندي**
(المتوفى: ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م)
رئيس الجامعة الإسلامية: دارالعلوم، ديوبند، الأسبق
تعريب: **الأستاذ محمد رضوان القاسمي**(*)

سنة الوفود:

ومما لا يختلف فيه اثنان أنّ العرب قاطبةً كانوا يحترمون قبيلة قريش، ويرونها إمامهم، ويعتبرون أفعالها نموذجًا يُقتدى به، وقبل فتحِ مكة كانت قبائل العرب تنظر إلى ما يؤول إليه أمرُ قريش؛ فلما تمّ الفتح وأسلمت قريش كلّها، تيسّر للقبائل الطريقُ إلى الإسلام؛ فأرسلتْ إلى النبي -ﷺ- رسلَهم متمثّلين في الوفود، ثم أسلمت فعلًا. والواقع أنه ما مضى على الفتح سنةٌ؛ حتى ضربتْ إليه -ﷺ- وفودُ العرب من كل صوبٍ وحدبٍ، وأسلمت عن أنفسها أصالةً وعن قبائلها نيابةً؛ فمن هنا يُطْلَق على هذه السنة «سنة الوفود».

وفي هذه الفترة كان الإسلام قد بسط نفوذَه على الجزيرة العربية، وبالتّالي امتنعت قبائلها عن المقاومة والمحاربة والطغيان؛ فلم يستطع أحد منها أن يرتكب شيئًا من ذلك. ومُعْظَمُ القبائل كانت قد أسلمت عن رضا منها وطواعيةٍ؛ ولكن رغم ذلك كلّه بقيت هنالك قبائل عديدة تتّسم بالغلظة والشدّة، وتوجد فيها نشوة الإمارة والحكومة بجانب البدويّة؛ فهي قدمت على النبي ﷺ، ولم تتورَّعْ عن فطرتها الأصلية، فآذتْه بخشونتها وشدّتها؛ إلا أنه -ﷺ- قد احتمل كل ذلك مع ما كان عليه يوم ذاك من القوّة والهيبة، ولم يُبرّر فيهم أيَّ نوع من العنف والإكراه، و بلّغهم حقّانية الإسلام على نحوٍ يليق بهم؛ فمن تلك الوفود : وفد بني تميم، وقصّته فيما يلي:

وفد «بني تميم»:

وفي هذه السنة قدم على رسول الله -ﷺ- وفد بني تميم مع زعمائه وشعرائه وخطبائه؛ فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله -ﷺ- من وراء حجراته: «أن اخْرجْ إلينا يا محمَّد!»، فآذى ذلك رسولَ الله -ﷺ- ولكن لم يقل شيئًا، وخرج إليهم، فقالوا: «جئنا نفاخرك، فأذنْ لشاعرنا وخطيبنا».

ليقفْ هنا - القارئ - وينظر ما أسْوأ هذا الأسلوب! وما أغرب هذه الكلمات!! ولكنْ هيهات أن يأتي الزمان بمثله -ﷺ-؛ لأنه كان ألْينَ الناس جميعًا وأحسنهم خلقًا وأكثرهم عفوًا؛ فلم يقل لهم: «إن الإسلام لقد ظهرت حقانيّته؛ فلا بدّ لكم أن تُسلِمُوا كائنًا ما كان ». وإنّما أتاح لهم أن يتفهّموا الإسلام كيف ما يشاؤون؛ فأذن لهم، فقام

(*) الأستاذ بالجامعة الإسلامية العربية بجامع أمروهة/الهند.

منهم «عطارد»، فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموا لا عظامًا نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثرهم عددًا، فمن يفاخرنا فليعدد مثل عددنا. فقال رسول الله -ﷺ- لثابت بن قيس: «أجبْ الرجلَ!»، فقام ثابت، فقال:

الحمد لله الذي له السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيّه علمه، ولم يكن شيء قطّ إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولًا، أكرمهم نسبًا، وأصدقهم حديثًا، وأفضلهم حسبًا، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله -تعالى- من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان، فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس نسبًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فعالًا. ثم كان أول الخلق استجابةً لله حين دعاه نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا، والسلام عليكم. فقالوا: يا رسول الله، ائذن لشاعرنا، فأذن له، فقام «الزبرقان بن بدر»؛ فأنشد ثمانية أشعار، وشعرٌ منها كنموذج فيما يلي:

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَيٌّ يُعَادِلُنَا
مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبِيَعُ

وكان حسّان بن ثابت غائبًا، فدعاه رسول الله -ﷺ- ليجيب شاعرهم؛ فقال حسان ثمانية عشر شعرًا على نحوه، فمنها:

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ
قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ
أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا

فلما فرغ حسّان، قال الأقرع بن حابس: إنّ هذا الرجل لمؤتى له، خطيبهم أخطَبُ من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا، ثم أسلموا وأجازهم رسول الله -ﷺ-، وفيهم أنزل الله - تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:٤][1].

وفد «بني أسد»:

وفي هذه السنة قدم وفد بني أسد على رسول الله -ﷺ- وأخذوا يمنّون عليه - صادرين عن بدويّتهم وسذاجتهم - أنّهم قد حضروه عن طواعية؛ فقالوا: أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولا، فلم يردّ عليهم النبي -ﷺ- بشيء لحلمه وكرمه البالغين؛ ولكن الله قد نبّهم على ذلك، فأنزل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

وما أوردناه من قصص الوفدَيْن: «بني تميم» و«بني أسد»، إن دلّ على شيء؛ فإنّما يدلّ على أنّ الإيمان نعمةٌ لا -ولن- يُجْبَر أحد على قبولها. و في السنة نفسها -سنةِ الوفود- قدم على رسول الله -ﷺ- كتبُ ملوك «حمير» مع رسلهم، مخبرين بأنّهم قد فارقوا الشرك وأهلَه، وأسلموا عن رضا كامل وطواعية بالغة؛ فكتب إليهم رسول الله -ﷺ- يأمرهم بما

عليهم في الإسلام، وينهاهم عما حرّم عليهم.

وفد «نجران» مع العاقب والسيد

وفي هـذه الـسنة أرسـل رسـول الله -ﷺ- خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثًا، فخرج إليهم ودعاهم إلى الإسلام، فأجابوا وأسلموا، فأقام فيهم، وعلّمهم شرائعَ الإسلام، وبالتّالي لقد تقرَّر الإسلام في «نجران» واستحكم.

وأمّا نصارى نجران فإنّهم لم يُسلموا رغم ما رأوه من قوة الإسلام وانتشاره بأم أعينهم، وإنّما ثبتوا على دينهم القديم، ولم يحملهم شيء من الخوف على أن يتركوا دينهم أو وطنهم؛ بل فعلوا – على العكس من ذلك – أنّهم أرسلوا العاقب والسّيد في نفرٍ إلى رسول الله، وأرادوا مباهلتَه – والمباهلة: هي أن يجتمع الفريقان اللّذان يتنازعان في شيء مع أهلهم، فيقولون: لعنة الله على الظالم والكاذب منا – فلم يُبرّر فيهم النبيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أيَّ نوع من الشدّة والغلظة، واستعدّ للمباهلة؛ لكي تتّضح الحقيقةُ أمام الجميع، فخرج ومعه عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ-. وبما أنّ نصارى نجران كانوا أهل الكتاب، فهم يدركون الحقيقة، فلما رأوا هذه النّفوس المقدّسة المطهّرة أمامهم، استيقنوا أنه لن يبقى أحدٌ منهم؛ بل ومن نصارى العالم كلّه إذا باهلوه -ﷺ-؛ لأن دعاءه عليهم لايذَر أحدًا منهم حيًّا يُرزق. فقالوا فيما بينهم: «هذه وجوهٌ لو أقسمتْ على الله أن يزيل الجبال لأزالها»، فلم يباهلوه؛ ولكنهم رغم ذلك كلّه لم يؤمنوا؛ وإنّما طلبوا منه المصالحة، فقبِل ذلك عن رضا كاملٍ على ما أسلفناه من شروط، ونصُّها: «وجعل لهم ذمّة الله تعالى وعهده ألا يُفْتَنوا عن دينهم، ولا يُعشروا»[٢].

ومن كان لديه شيء من العقل فلْيأتِ وليعْدِلْ! هل كان بوُسْع أحد من البشر أن يتّخذ موقفًا ألْينَ من ذلك في مثل هذه الأوضاع؟! وهل من مجنون في العالم يزعم بعد هذه الكثرة الكاثرة من الشواهد أن الإسلام قد انتشر عن طريق الإكراه والإجبار؟!!

ومما يجدر بالذكر أن النبي -ﷺ- بعث فيما حول مكة -بعد فتحها- السّرايا تدعو إلى الإسلام، ولم يأمرهم بقتال، وكان ممن بعث خالدُ بن الوليد، وأمره أن يسير بأسفل «تهامة» داعيًا، ولم يبعثه مقاتلًا، فوطئ بني جذيمة، فأصاب منهم، فقتل من قتل منهم. فلما انتهى الخبر إلى رسول الله -ﷺ- رفع يديه إلى السماء، ثم قال: «اللّهمّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»![٣].

بعثُ عليٍّ إلى اليمن، وإسلام قبيلة «همدان»:

وفي هذه السنة بعث رسول الله -ﷺ- عليًّا إلى اليمن، وقد أرسل قبله إليهم خالدَ بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، فأرسل عليًّا وأمره أن يُقفل خالدًا ومن شاء من أصحابه، ففعل، وقرأ عليٌّ كتابَ رسول الله -ﷺ- على أهل اليمن، فأسلمت «همدان» كلّها في يوم واحد، فكتب بذلك إلى رسول الله -ﷺ- فقال: «السّلام على همدان»، يقوله ثلاثًا. ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام، وكتب بذلك إلى رسول الله -ﷺ- فسجد شكرًا لله تعالى[٤].

و بما أنّ عليًا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كان قد تعامل مع قبيلة «همدان» بالرّفق والحكمة، اتّصل حبلُها به اتّصالاً خاصًّا؛ فهي ظلّتْ وفيّةً لعليّ فيما وقع لاحقًا من المحاربات والاختلافات. ومن هنا كان عليّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقول عنهم:

فلو كنتُ بوّابًا على باب الجنة

لقلتُ لهمدان ادخلوا بسلام(٥).

قبيلة «طيء» وإسلام عدي بن حاتم:

عدي بن حاتم الطّائي- الذي يضرب به المثل في الجود والكرم - كان سيّدَ قبيلته: «طيء»، وأصبح نصرانيًّا، وقصةُ إسلامه: أنّ النّبي -ﷺ- أرسل عليّ بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في سرية إلى ديار طيء، وأمره أن يهدم صنمهم «الفلس»، فسار إليهم وأغار عليهم، فغنم وسبى وكسر الصنم. وأما عديّ بن حاتم فقد هرب إلى الشّام من الإسلام في ذلك الوقت، وأسر عليٌّ أختَه، وأتى بها إلى رسول الله -ﷺ- بالمدينة، فأطلقها.

فقالت:يا رسول الله! هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ منّ الله عليك. فقال: ومن وافدك؟ قالت: عديّ بن حاتم. قال: الذي فرّ من الله ورسوله! فمنّ عليها، فوصلتْ إلى الشام في طلب أخيه. يقول عدي بنفسه:

كنت ملك طيء آخذ منهم المرباع وأنا نصرانيّ، فلما قدمتْ خيل رسول الله -ﷺ-، هربتُ إلى الشام من الإسلام، وقلت: أكون عند أهل ديني، فبينا أنا بالشّام إذ جاءت أختي، وأخذت تلومني على تركها وهربي بأهلي دونها، ثم قالت لي: أرى أن تلحق بمحمّد سريعًا، فإن كان نبيًّا كان للسّابق فضله، وإن كان ملكًا كنت في عزّ وأنت أنت. قال: فقدمت على رسول الله -ﷺ- فسلّمت عليه وعرفته نفسي، فانطلق بي إلى بيته، فلقيتْه امرأةٌ ضعيفةٌ فاستوقفتْه، فوقف لها طويلًا تكلّمه في حاجتها، فقلت: ما هذا بملك، ثم دخلتُ بيته فأجلسني على وسادة، وجلس على الأرض، فقلت في نفسي: ما هذا ملك. فقال لي: يا عدي! إنك تأخذ المرباع وهو لا يحلّ في دينك، ولعلّك إنّما يمنعك من الإسلام ما ترى من حاجتنا وكثرة عدوّنا، والله ليفيضنّ المال فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ووالله لتسمعنّ بالمرأة تسير من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف إلا الله، ووالله لتسمعنّ بالقصور البيض من «بابل» وقد فُتحتْ. قال: فأسلمت، فقد رأيت القصور البيض وقد فتحت، ورأيت المرأة تخرج إلى البيت لا تخاف إلا الله، ووالله لتكوننّ الثالثة، ليفيضنّ المال حتى لا يقبله أحدٌ(٦).

هذه القصّة هي الأخرى تعود إلى «سنة الوفود»، وهي تؤكّد أنّ النّبي -ﷺ- يهدف بجانب تبليغ الدين الحق - الإسلام- إلى إقامة الأمن والسّلام الذي لقد حقّقه فعلًا.. وأنّه كان على يقينٍ تامّ من انتشار الإسلام وصدْقِ ما وعده الله؛ بحيث لم يَصْرِفه عن وجهته ما كان يعانيه من عوزِ الأسباب الظاهرة و مخالفةِ الدنيا كلِّها.. وأنّه كان لا يعتمد على مجرّد الأسباب الظاهرة؛ وإلا فقد أظهر أمام عديّ بن حاتم - بهذه المناسبة - قوّةَ الإسلام

وعظمته، دون ضعفه واحتياجه. كما تؤكّد - هذه القصة - أنّ المال والمتاع ليس من أسباب الرقيّ والتقدّم؛ إذْ أنّ المسلمين قد تقدّموا في زمنٍ لم يكونوا يستطيعون أن يقضوا حوائجهم اليوميّة بسهولةٍ ويسر، فلما كثر المالُ وظهرت آثارُه فيهم فيما بعد، اعتراهم ضعفٌ في الإخلاص وحماسة الدين؛ فانحطّوا يومًا فيومًا عمّا كانوا عليه في القرون الأولى.

وفد «بني عامر»:

و في هذه السنة - سنة الوفود- قدم على رسول الله -ﷺ- وفد بني عامر، فيهم: عامر بن الطّفيل وأربد بن قيس وجبّار بن سلمى، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم، وقدم عامر بن الطفيل عدوّ الله على رسول الله -ﷺ- وهو يريد الغدر به، وقد قال له قومه: يا أبا عامر! إن الناس قد أسلموا فأسلمْ. قال: والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتّبع العرب عقبي، فأنا أتّبع عقب هذا الفتى من قريش؟ ثم قال لأربد: إن قدمنا على الرجل فإني سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلتُ ذلك فاعلّه بالسيف، فلما قدموا على رسول الله ﷺ. قال عامر بن الطّفيل: يا محمد خالِني قال: لا والله حتى تؤمن بالله وحده، قال يا محمد خالني، وجعل يكلّمه وينتظر من أربد ما كان أمرَه به، فجعل أربد لا يحير شيئًا، فلما رأى عامر ما يصنع أربد، قال يا محمد خالني، قال: لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له، فلما أبى عليه رسول الله -ﷺ-. قال: «أما والله لأملأنّها عليك خيلًا ورجالًا».

ومما يجدر بالملاحظة أن سنة الوفود التي كان قد أسلم فيها قبائل العرب كلُّها بأنفسها وعن تراض منها، وأظهر ملوك «حمير» إسلامَهم و إطاعتَهم عن طريق رسلهم وكتابهم، وكذلك قد أسلم ملكُ طيء وسيّدُها: عديّ بن حاتم الطّائي- كما أسلفنا قصصهم - ولم يبق في الجزيرة العربية أحد من أعداء الإسلام إلا العدد القليل. ففي هذه السنة يقدم عامر بن الطفيل ومعه عشرة رجال على النبي -ﷺ- ولا يكتفي بأن يكلّمه بهذه الجرأة والوقاحة؛ وإنّما يجترأ على أن يهدّده. فما أعجب ذلك! فهل أنت تجد لحلمه -ﷺ- وصبره و عفوه و تسامحه مثالًا آخر؟! كلّا! لأنه لايردّ على هذا العدوّ شيئًا؛ وإنّما يقول بعد أن ولّى: «اللّهمّ اكْفني عامر بن الطّفيل».

فلما خرجوا من عند رسول الله -ﷺ- قال عامر بن الطفيل لأربد: أين ما كنتُ أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل أخوف على نفسي منك، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبدًا. قال: لا أبا لك لا تعجل علي، والله ما هممت بالذي أمرتَني به؛ إلا دخلتَ بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسّيف؟.

يستطيع كل عاقل عادل أن يفهم بهذه المناسبة أن النّبي-ﷺ- كان من شأنه أنّه يحيط علمًا بكل شيء - صغيرًا كان أوكبيرًا- عن طريق الوحي مسبّقًا؛ فكيف من الممكن أنه لم يكن اطلع على ما أراده عامر بن الطّفيل من سوء؟ فياسبحان الله، ما أوسع رحمته! إنّه قد أظهر حقانيّة الإسلام وكونَه -ﷺ- مرسلًا من الله بكل ناحية من النواحي؛

فأتاح لعامر بن الطفيل و أربد أن يحققا أمنيّتهما القلبيّة، ويَرَيا أنّ الله عزوجل كيف يؤيّد رسولَه الصادق الأمين.

ولو سلّمنا أن عامر بن الطفيل وأصحابه لم يكونوا تأثّروا برؤيته -ﷺ- ولابحديثه الصادق المؤثّر؛ فماذا منعهم أن آمنوا بالله ورسوله بعد ما رأوا هذه المعجزة الباهرة على يديه -ﷺ-؟! ولكن مما يبعث على الأسف أنّ الشّقاوة الأزليّة قد مسختْ كلاًّ من عقلهم وإدراكهم وتمييزهم بين الحق والباطل؛ فلم يتشرّفوا بالإسلام، وكان عامر بن الطفيل سرعانَ ما أصبح عُرضةً لدعائه -ﷺ- الذي لابدّ أن يستجاب.

فخرجوا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله عز وجلّ على عامر بن الطفيل الطاعونَ في عنقه، فقتله الله في بيت امرأة من «بني سلول»، وهو بعيد عن الدار والوطن فلا ناصر له ولا أنيس. فيا له من عار! يموت الرجل المتكبّر الغيور مثل عامر الذي ما انقاد لرسول الله -ﷺ- هو الآخر الذي انقادت له العرب قاطبةً؛ وإنما كلّمه و هدّده متبخترًا على سيادته و قوته... يموت في حالة الغربة و في بيت امرأة، فهو يقول ويتحسّر: «يا بني عامر، أغدّة كغدّة البعير، وموت في بيت سلوليّة!».

وأما أربد بن قيس فقد أرسل الله إليه صاعقةً فأحرقته، وكان أربد أخًا لـ«لبيد بن ربيعة» لأمّه.

إنّها أحداث واضحة تدلّ في جانبٍ على حقانيّة الإسلام الكاملة، وتؤكّد في جانب آخر أن النّبي -ﷺ- قد اختار من الأساليب ما هو أسهل وألين في سبيل نشر دعوة الإسلام، واحترز من ممارسة العنف الشرعي اللّائق بالأعداء أيضًا(٧).

قدوم وافد فروة بن عمرو الجذامي

بعث فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي إلى رسول الله -ﷺ- رسولًا بإسلامه، وأهدى له بغلةً بيضاء، وكان فروة عاملا لملِك الرّوم على من يليهم من قبائل العرب وكان منزله «معان» وما حولها من أرض الشّام، فلما بلغ الرّوم ذلك من إسلامه، طلبوه؛ حتى أخذوه، فحبسوه عندهم، فلم يبال فروة بنفسه؛ لأن الإسلام كان قد تمكّن من قلبه ونفسه، فقال في محبسه ذلك. وزعم الزّهري أنّهم لما قدّموه ليقتلوه قال:

بَلِّغْ سَرَاةَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّنِي
سِلْمٌ لِرَبِّي أَعْظُمِي وَمَقَامِي

ثم ضربوا عنقه وصلبوه، رحمه الله ورضي عنه وأرضاه وجعل الجنة مثواه(٨).

قدوم ضمام بن ثعلبة وافداً عن قومه:

بعثت بنو سعد بن بكر ضمامَ بن ثعلبة، وكان جلدًا أشعر ذا عذارتين، وافدًا إلى رسول الله -ﷺ- فأقبل؛ حتى وقف على رسول الله -ﷺ- فسأله، فأغلظ في المسألة، سأله عمّن أرسله وبما أرسله؟ وسأله عن شرائع الإسلام، فأجابه رسول الله -ﷺ- في ذلك كلّه، فرجع إلى قومه مسلمًا قد خلع الأنداد؛ فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلّم أن قال: بئست اللّات والعزّى! فقالوا: مه يا ضمام! اتّق البرص، اتّق الجذام، اتّق الجنون! فقال: ويلكم إنّهما والله لا يضرّان ولا ينفعان، إنّ الله قد بعث رسولا،

وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به ممّا كنتم فيه. وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّدًا عبده ورسوله. وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه. قال –الراوي–: فو الله ما أمسى من ذلك اليوم، وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلمًا[٩].

ضمام بن ثعلبة، ما سنح له أن يمكث مع النبي -ﷺ- إلا قليلًا: يومًا أويومين، وأيضًا لم يرسل النبي -ﷺ- معه جيشًا أكره قومَه حتى يكونوا مؤمنين خوفًا منه، وإنّما نشأت هنالك قوّةٌ روحانيّة في نفس ضمام بن ثعلبة بفضل صحبته -ﷺ- القليلة المباركة، فجذبتْ قومَه بأسرهم الذين كانت قد تغلغلتْ فيهم العقائد الشركيّة.

تلك هي قوّة الإسلام وكرامتُه التي قد انتشر الإسلام في العالم بفضلها، والتي سخّرت قلوبَ الناس قبل أن تسخّر أجسامَهم، وأسرت القلوبَ كما يأسر الحبيبُ قلب العاشق المستهام، ولم تُكبِّل أرجلَهم بأغلال الإكراه مثل السُّجناء وقلوبهم عنها متنفّرة. وذلك هو نور الإسلام الحقيقيّ الذي لم يدخل مثقالُ ذرّة منه قلبَ أحد من النّاس إلا و قد جعله يتمكّن أن يجذب الآخرين إليه بحكم قوّته القلبيّة وبيانه المؤثّر.

إنّها أحوال الناس الذين لم يتشرّفوا بصحبته -ﷺ- أو برؤيته المباركة إلا قليلًا: ساعةً أوساعتين، وأمّا أصحابه الذين قد قضوا حياتهم كلّها في التّفاني في سبيل طاعته، ولازموه في الحلّ والترحال ملازمةَ الظلّ لصاحبه، وعزَّ عليهم فراقُه لساعة من الزمان، فأنت تستطيع أن تقيس مدى رسوخهم في الإيمان وتأثيرِهم القلبيّ وقوّتِهم الجاذبة، على هؤلاء الذين نحن بسبيل الحديث عنهم.

ومن المعلوم أنه قد تم فتح مكة في السنة الثامنة في شهر رمضان المبارك، ولم يمض على ذلك مدةُ سنةٍ ورُبع؛ حتى قدمت وفودُ العرب على النبي -ﷺ- ودخلوا في دين الله أفواجًا، فأنزل الله عزوجلّ سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾. وأنبأه من خلالها أنه قد تمت أهداف مبعثه، وأن تأثيرحقانيّة الإسلام الذي قد تمكّن في قلوب الناس، لا - ولن- يمّحي أبدًا، ولن يحول شيء دون انتشار الإسلام.

حجة الوداع:

لقد حجّ النبي -ﷺ- في السنة التاسعة، ويقال لها: «حجّة الوداع»؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ودّع الناس فيها ولم يحجّ بعدها. وسُمّيتْ: «حجّة الإسلام»؛ لأنه لم يحجّ من المدينة غيرها. وسمّيت: «حجة البلاغ»؛ لأنه بلّغ فيها المسلمين جميعًا مناسك الحج خصوصًا وأحكام الإسلام عمومًا، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بيّنه عليه السلام، وبما أنّه قد اجتمع بـ«عرفة» مئات الآلاف من المسلمين، دعت الحاجة إلى أن يُبَلَّغ عنه كلّ ما يقول؛ فكان الذي يبلّغ عنه بـ«عرفة»: ربيعة بن أميّة بن خلف، فقال بعد حمد الله:

«أيّها الناس اسمعوا قولي، فلعلّيْ لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا». وقال في خطبته الطويلة:

«فـإنّ دمـاءكم وأمـوالكم وأعراضـكم علـيكم حـرامٌ كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا».

وكانت العرب ظلّت تتبادل فيما بينها الرّبا، وقد أنزل الله تعالى حرمته في كتابه العزيز، وبيّنها الرسول-ﷺ- غير مرّة؛ ولكن عند حجة الوداع كرَّر -ﷺ- حرمة الرّبا مع حرمة الدّماء، فقال:

«ألا إنّ كل دم ومال ومأثرةٍ كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة، وإنّ أول دمٍ يوضع، دم «ربيعة» بن الحارث بن عبد المطلب - و كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل - ألا إنّ كل ربًا في الجاهلية موضوع، وإنّ الله قضى أنّ أول ربا يوضع، ربا العبّاس بن عبد المطّلب، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. أيّها النّاس: إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنّه يطاع فيما سوى ذلك، وقد رضي بما تحقرون من أعمالكم»(١٠).

فما أصدق قولَه -ﷺ-: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا!». إذْ إنّ العرب كانت قد امّحت منهم آثارُ الوثنيّة كليًّا، وإن نشأ فيهم مفاسد في أعمالهم. و بفضل دعائه -ﷺ- ظلّت العرب ولاتزال منزَّهةً عن الشرك والوثنيّة كل التّنزيه لحدّ اليوم.

في ضوء هذه الأقوال النبويّة يستطيع كل عاقل أن يفهم أن النبي -ﷺ- إنما بُعث ليُعمّم الهداية، ويقيم الأمن، ويحافظ على أموال الناس وأنفسهم. ولذلك لقد ذكر خلال خطبته الأخيرة - في حجّة الوداع - في غاية من العناية، الأمورَ التي تدلّ على أن الإسلام لا يمتّ - منذ فجره الأول - بأيّ صلة إلى العوامل والتّدابير التي تُكره النّاسَ حتى يكونوا مؤمنين.

قد سردنا في هذا المقال نبذةً من الأحوال والأحداث التأريخيّة التي تعود إلى ما بعد فتح مكة غيضًا من فيض، مما يجعل القارئ الخبير المنصف يتأكّد - بعد أن يتناولها بدراسةٍ لائقةٍ - أن الإسلام كيف تمّ انتشاره؟ وما هي العوامل الأساسيّة من وراء ذلك؟!

* * *

الهوامش:

(١) الكامل في التاريخ:١١٠/٢ذكر قدوم الوفود على رسول الله -ﷺ- تاريخ الطبري:١٥٠/٣، ذكر الخبر عن غزوة تبوك.

(٢) الكامل في التاريخ:١١٢/٢ذكر وفد نجران مع العاقب والسيد.

(٣) تاريخ الطبري:١٢٤/٣ مسير خالد بن الوليد الى بنى جذيمة ابن مالك.

(٤) الكامل: ١١٤/٢، ذكر الأحداث في سنة عشر.البداية والنهاية: ١٠٦/٥، باب بعث رسول الله -ﷺ- علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد قبل حجة الوداع.

(٥) حكاية حرب صفين وذكر قبائل همدان: ديوان علي، ص:١٢٣.

(٦) الكامل في التاريخ:١٠٩/٢، ذكر غزوة طيء وإسلام عدي بن حاتم.

(٧) البداية والنهاية:٥٧/٥، سنة الوفود. الكامل:١١٤/٢، ذكر الأحداث في سنة عشر.

(٨) البداية والنهاية:٨٦/٥، سنة الوفود. الكامل: ذكر الأحداث في سنة عشر.

(٩) ملخصا من البداية والنهاية:٦١/٥، قدوم ضمام بن ثعلبة على رسول الله -ﷺ- وافدا عن قومه بنى سعد بن بكر.

(١٠) تلخيص من البداية والنهاية:١٩٥/٥، فصل في خطبة هذا اليوم الخطبة العظيمة المتواترة. الكامل: ١١٦/٢، ذكر حجة الوداع. السيرة النبوية لابن هشام: حجة الوداع. صحيح البخاري: ٣٣١/٢، كتاب المغازي، باب حجة الوداع.

هَل الإسلام دين سَلام؟

بقلم: **الشيخ محمد محمد أبو خوات**(*)

كلما احتفل المسلمون بذكرى الهجرة النبوية، ثارت تساؤلات تتناول أسباب الهجرة، وما حدث فيها من أحداث معجزة، وقد تتفرع عن هذا أحاديث تتناول حقيقة هذا الدين، أدين حرب أم دين سلام؟.

وإذا كان هذا الدين دين سلام – كما يصفه دعاته، وكما يبدو من حادث الهجرة – فلماذا حمل المسلمون السلاح؟؟.

ونحن من جانبنا – انطلاقًا من حادث الهجرة وبمناسبته – نعطي هذا التساؤل حقه من البحث، إسهامًا في تجلية أمره للمتسائلين، وردًّا مقنعًا – إن شاء الله – على المتحاملين، فنقول وبالله التوفيق.

أولًا: الإسلام دين سلام، سواء في دعوته ومبادئه، أم في واقع اعتناقه ونشره..

(أ) الدعوة والمبادئ:

فأما الدعوة فهي بطبيعتها دعوة إلى السلام، وذلك لأن أكثر ما يثير الخلافات بين البشر، شعور الجماعة بوضع متميز ظالم يفرض عليها لصالح فرد أو أفراد ... ودعوة الإسلام تجردت عن هذا المعنى تجردًا كاملا سواء في ذات المدعو له سبحانه وتعالى، أم في شخص الداعي..

فأما ذات الخالق سبحانه وتعالى، فقد دعا الإسلام للإيمان به، على أساس من العدل يلجئ كل ذي عقل غير معاند إلى الإيمان به ومحبته والخضوع له، .. فعن طريق مخاطبة العقل ومساءلته في خلق السماوات وما فيها من أجرام، وخلق الأرض وما فيها من معادن وماء وزروع وثمار، وخلق الإنسان نفسه وما يميزه عن غيره من أسباب التكليف والتكريم، وذلك كله من غير أن يزعم أحد – سواء من الداعي أم المدعوين – بأنه هو الذي خلق، أو بأن شيئا من هذه المخلوقات، هو الذي خلق غيره، مع اعتبار حب الإنسان للعدل والشعور به في نفسه لدرجة أن يسأل. أفمن يخلق كمن لا يخلق؟.

أقول: عن طريق مخاطبة العقل ومساءلته في ذلك كله وغيره، مما زخرت به صفحات الكتاب الكريم، يشعر المدعو إلى الإيمان، بأن المدعو له حقيق بالإيمان به، جدير بالخضوع له، وبأن من الظلم العظيم سلب حقه في العبادة وإعطاء هذا الحق لغيره من شمس أو قمر، أو نبات أو إنسان أوحجر، ومن هنا أعجب المشركون بأسلوب

(*) المدرس الأول بالأزهر – الإسكندرية.

القرآن في دعوته للخالق، وأخذوا به وتحيروا فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

واعتمدت الدعوة على تأثير القرآن في نفوس العرب حتى جعلت مجرد سماع المشركين لآياته الباهرات هدفًا من أهدافها. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ ... ولقد بلغ من تأثرهم به أن تواصوا. ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾..

وهذه الطريقة في الدعوة إلى الله طريقة سلام ما في ذلك شك، لأنها تعتمد على الإقناع العقلي، والإيقان النفسي دون تقلد قوس أو امتشاق حسام، ولكن أصحاب الزعامة الدينية، والأغنياء السادة المستغلين للتجارة والزراعة والناس من العبيد والفقراء، تصوروا في الدعوة الجديدة سلبًا لزعاماتهم وقضاء على استغلالهم، فوقفوا ضد الدين الجديد يحاربونه بكل ما يملكون، على أن هناك طائفة ثالثة تحجرت عقولها وعميت بصائرها فلم تعرف إلى الحق أي سبيل...

هذا ما سلكته الدعوة بالنسبة إلى ذات الله والإيمان به. وان شئت فاقرأ الآيات من أول سورة الرعد، أو آيات سورة النمل من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟.. إلى قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.. بل إن شئت فاقرأ القرآن كله تجد الدعوة إلى الله قد تجردت عن كل ظلم وقسر، فهي كما ترى تطلب من المدعوين – بالحق وبالعدل – الإيمان والخضوع لمن يستحق الإيمان والخضوع...

وأما شخص الداعي، فقد حرص على إبراز عبوديته وخضوعه لمن يدعوهم للإيمان به والخضوع له، وعاضده القرآن في ذلك أيما معاضدة فلم يطلب لنفسه، ولم يطلب له القرآن وضعًا متميزًا على غيره من المدعوين. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ .. ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾. ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾...

ولئن كانت نشأة النبي وحياته نشأة الفقراء وحياتهم مما جعل المعاندين يأنفون أن يؤمنوا برسالته، لقد كان لهم من مقام أرومته وأصالة محتده ومنزلة آبائه، وما يجمعهم عليه إن كانت دوافع إيمانهم بصدقه ترتبط بعراقة الأصل ومجد الآباء والجدود...

وبهذا ثبت أن طبيعة الدعوة، من حيث ذات المدعو إليه وهو الله سبحانه، ومن حيث صفات الداعي الأصلية، وما تحلى به بعد تكليفه بالرسالة، طبيعة سلام، لأن سلاحها الحق والعدل.

وأما المبادئ التي دعا إليها داعية الإسلام،

فهي مبادئ أمن وسلام، وأصول حياة تقوم على المحبة والنظام، ونحن إذا استعرضنا قدرا من أهم المبادئ والأصول التي قام عليها هذا الدين، على أنه علاقة بين العبد وربه، وتنظيم اجتماعي وسياسي واقتصادي بين البشر تبين لنا صدق دعوانا حتى لكأن المقصود بكل مبادئ الإسلام وأصوله وقضاياه الكبرى هو تحقيق السلام والأمن والنظام، برغم ما يلقيه بعض الناس من أحجار في هذا الخضم الواسع، فمهما يلقوا في البحر يغرق..

فتنظيم العلاقة بين العبد وربه، من صدق الإيمان وكامل الإيقان، والصلاة والزكاة والصيام والحج على الوجه المطلوب كما قررته الدعوة في كتابها وعلى لسان الداعي، أمر يملأ نفس المؤمن معرفة للحق – وانفعالا بمعاني العدل، وحبًّا للخالق يدعوه لطاعته، فيأتمر بما أمر وينتهي عما نهى، وهذا كله يصنع من المؤمن إنسانا يتخلق بأخلاق الله من العدل والرحمة والأمن والسلام، مع استحضار حصر الدعوة كلها في رحمة الله بالخلق، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين...

وهذه المعاني تنعكس على علاقة المؤمن بغيره من المخلوقات كلها، علاوة على ما في الصلاة والزكاة والحج والصيام، من تجسيد هذه المعاني في علاقة كل مؤمن بغيره من المخلوقات، وهذا شيء واضح، وكذلك تنظيم العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بين الناس، لم يكن له من هدف في الإسلام إلا أن تقوم هذه العلاقات على العدل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، مع ما يغرسه في نفوس معتنقيه من المحبة والإخاء والإيثار.

وبهذه العجالة نستطيع أن نحكم – مستريحي الضمير – بأن الاسلام في دعوته ومبادئه دين سلام يكره العنف والإذلال والإعنات، لأنه يكره الظلم ويقيم للحق والعدل أعلى الدعامات...

(ب) تاريخ الإسلام وواقع نشره واعتناقه:

أما أن الإسلام – من واقع نشره، وتاريخ اعتناقه – دين سلام، فذلك باب واسع، يطول بنا البحث لو قصصنا الأحداث التاريخية والوقائع المروية عن الثقات من الرواة، التي تدل عليه..

فالإسلام عقيدة يمتلئ بها القلب والوجدان فيندفع الإنسان – بها ومن أجلها – إلى القيام بمختلف العبادات التي تدل على صدق المعتقد في اعتقاده، ولئن كانت العبادات الظاهرة صالحة للمراقبة البشرية والحساب الدنيوي، فإن العقيدة القلبية لا يمكن أن تكون محلا للمراقبة والملاحظة، لأن عقيدة أي شخص سر من أسرار نفسه، لا يعرفها على الحقيقة سواه، ومن هنا لم يكن من الممكن كشف المنافقين إلا عن طريق الوحي.. ولننظر. بماذا تكون نجاة المسلم؟ أبقيامه بالعبادة الظاهرة دون إيمان وإيقان، أم الإيمان بالخالق وما يجب له من العبادة والخضوع إيمانا يدفع صاحبه راغبا للعبادة والخضوع؟..

وهذا الإيمان المطلوب لا تمكن مراقبته، لأنه أمر نفسي. كما لا يمكن القسر عليه، لأن العقائد لا

تكتسب بالقوة ولكن تتحقق بالإقناع.. وإلا فماذا صنعت قريش حين لجأت إلى تعذيب من آمنوا بمحمد ورسالته بأقسى أنواع التعذيب؟...

هل ردوا أحدا بالقوة وعن طريق القسر عن إيمانه؟ وهذا جانب من البحث له دلالته على ما نحن فيه.. وفرق بين رجلين يقفان في صف واحد. أحدهما يؤمن بأن عقيدته تستحق أن يبذل في سبيلها نفسه، لأن بقاء عقيدته أسمى وأعز عنده من بقاء نفسه، والآخر يأتي إلى الصف بلا عقيدة، فإن تحقق النصر فهو مع المنتصرين، وإن رأى الهزيمة فر وتولى لا يلوي على شيء، فعلى مثل الأول قام الإسلام ونهضت مبادئه، وعلى مثل الثاني تضيع المبادئ والمنادون بها جميعًا...

وإذا كان معنى الدعوة إلى الإسلام غرس عقيدة مكان عقيدة، فهل باشر محمد مع من آمن به في أول الأمر شيئا من أساليب الضغط أو الإكراه، وهو الفقير الذي لا يستطيع أن ينثر الذهب على تابعيه، البعيد عن مجالس الحكم والرئاسة والجاه، بحيث لا يطمع طامع أن ينال من آثار هذه المجالس أدنى نصيب؟؟... وحين يحدثنا رواة التاريخ عن الحقبة التي قضاها النبي في مكة قبل الهجرة، لا نجد في حديث واحد منهم، سواء المسلم وغير المسلم، ما يدل على أن محمدًا أكره أحدًا على الإيمان بالله وبرسالته، بأي نوع من أنواع الإكراه..

وبعد الهجرة، يثبت التاريخ أن الدعوة إلى الله لم تأخذ سورة العنف أبدا، فقد دخل الرسول يثرب وما يكاد يوجد فيها بيت فيه مسلم، وقبل الأنصار وجود المهاجرين معهم، وأوسعوا لهم في السكن وفي العمل وفي القلوب جميعًا، وأحلوا الرسول من ذلك كله محل الكرامة والعزة والمنعة، ومع ذلك لم يقاتل اليهود الموجودين بها، بل عقد معهم المعاهدات التي تجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ولما صارت للمسلمين بالمدينة دولة أصبح عليهم – كما تقضي بذلك سنة العمران – أن يحافظوا على حدود دولتهم، وعلى حقوق مواطنيها من المسلمين وغير المسلمين، وأن يمنعوا عنها بالقوة – إذا لزم الأمر – كل من يحاول أن يعتدي على حرماتها أو يخترق حدودها. وذلك شيء من طبيعة العمران لا شأن للدعوة إلى الله أو لغير الله فيه. ونخلص من هذه النقطة، بأن الدعوة إلى الله في المدينة هي نفس الدعوة إليه في مكة وفي كل مكان، سبيلها الإقناع بالحق وبالعدل.

ورغم الغزوات التي خاضها المسلمون بقيادة الرسول الكريم، والتي اضطروا فيها لحمل السلاح دفاعًا عن دولتهم ومواطنيها، فإننا لا نعدم في كل غزوة منها روح السلام تبدو من جانب المسلمين، وروح الاعتداء والغدر والتفاخر بالقوة تبدو من الجانب الآخر...

ويروي التاريخ أن من كان يبعثهم الرسول لإسكات من يشغبون على الدولة، كان يأمرهم بألا يقاتلوا إلا المقاتلة، أما المسالمون والشيوخ والنساء والمستضعفون، فعلى قادة البعوث ألا يتعرضوا لهم

بسوء، ومن هذا القبيل قول الله تعالى: «فلا عدوان إلا على الظالمين»..

ويروي التاريخ بمداد من نور موقف النبي والمسلمين في الحديبية، ففي سبيل حقن الدماء، ورغبة في السلام للجميع قبل النبي شروط الصلح التي عرضها أهل مكة، رغم ما فيها – في ظاهر الأمر – من إجحاف بالمسلمين الذين كانوا يستطيعون القتال لو كانوا يريدونه، فقد كانوا ألفا وأربع مئة، كل رجل منهم يحب الموت أكثر من حب غيره للحياة...

كما يروي التاريخ أن النبي يوم فتح مكة أوصى خالدًا بعدم القتال، وكان خالد قد قاد جزءًا من جيش المسلمين عن طريق أسفل مكة (المسفلة)، وقاد النبي سائر الجيش من طريق أعلى مكة (المعلاة)، وعزل سعد بن عبادة لما بلغه عنه أنه تكلم بلسان الحرب في موكب السلام، وأمر أبا سفيان أن ينادي بالأمن والسلام لكل من يفعل أي فعل يدل على رغبته في السلام، فمن ألقى سلاحه ومن دخل المسجد وحتى من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وقال لمن أخرجوه منذ ثماني سنوات بعد أن دبروا قتله، وقد كانت حياتهم وموتهم على كلمة منه يومئذ، قولته الخالدة: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وعاتب خالدًا عتابًا شديدًا لما بلغه أنه قاتل، حتى اعتذر خالد بأنه لم يقاتل إلا من بدؤوه بالقتال.

وبعد الفتح زال الحرج الذي كان مسيطرا على أكثر قبائل العرب، الذين لم يريدوا أن يغضبوا قريشا، ولا يودون محاربة الرسول، فدخل الجميع – دون قتال – في دين الله أفواجًا...

ثم لنقف هنا وقفةً لنسأل الذين يرمون الحديث من أفواههم، ترديدًا لمن سبقوهم به، أو انفعالا ببعض المواقف دون بحث ظروفها وأسبابها، فيقولون: إن هذا الدين فرض على المؤمنين به بالسيف والقوة، لنسأل هؤلاء، أي الأوقات بعد الهجرة وبدر كان أخصب في ظهور الدعوة وكثرة المؤمنين بها، أوقات التربص والخوف أم أوقات الصلح والأمن والسلام؟؟. إن التاريخ الصادق يحدثنا أن عدد من آمن بهذه الدعوة في ظل الأمن والهدوء والحرية والسلام في سنتين بعد الحديبية يفوق أضعافًا مضاعفة من آمن قبل ذلك في خمس سنين في ظل التربص والحذر والخوف – ... أفبعد هذه الحقيقة الواقعة الدامغة، يكون هذا الدين من واقع نشره والإيمان به دين حرب وإعنات وإكراه؟؟.. وهل تصلح هذه الصفات وسائل لتثبيت عقيدة أو تخليد مبادئ أو تأسيس حضارة، اللّهم إن العقيدة ثابتة والمبادئ خالدة والحضارة قائمة، ولا يمكن أن ينهض هذا كله على الإكراه والإعنات... وصدق الله العظيم. سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ... إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء... ومن هذا القصص التاريخي المختصر يتبين لنا أن هذا الدين من واقع نشره واعتناقه، لا تزدهر مبادئه، ولا يربو عدد تابعيه إلا في ظل الأمن والسلام...

بالحب لله صلاح الدنيا والدين

بقلم: **الشيخ عبد المنعم عبد الحميد**

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. رواه الشيخان.

١- هذا الحديث الشريف يعتبر أصلًا عظيمًا من أصول الشريعة الإسلامية، وقاعدة كريمة من قواعدها، ومن نتائج تطبيقه والعمل به الاعتصام بحبل الله، وترك كل ما من شأنه أن يسيء إلى الآخرين مهما كانت نوازعهم واتجاهاتهم، والنفس القوية العظيمة المترفعة عن السفاسف والدنايا تحب الإحسان وتتجنب الإساءة، وتبتعد عن الإيذاء، وإذا فشت في الناس المحبة والتواد في الله، حصل التآلف، وانتظمت أمور العباد وأحوالهم في معاشهم الدنيوي، واتجهوا بقلوب صافية إلى ما ينفعهم في الآخرة، فيهابهم أعداؤهم، وتتحد قواهم، ويمتد سلطانهم وتسعد بهم الدنيا.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يؤمن أحدكم» المراد: الإيمان الكامل الشامل المبني على التصديق والإيقان بوجود الله ووحدانيته، وصدق رسله جميعا -عليهم الصلاة والسلام-، وهذا هو الإيمان الصحيح الموصل إلى سعادتي الدنيا والآخرة «حتى يحب لأخيه» في الإيمان والإسلام دون أن تقتصر محبته على فرد دون آخر، لأن المؤمنين متساوون في الأخوة «إنما المؤمنون إخوة». وقال بعض السلف الصالح -رضي الله عنهم جميعا-: «يمكن أن يكون التعبير بالأخ في كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عامًّا شاملًا فيدخل فيه كل الناس حتى الكفار فهم إخوة في الإنسانية، ومن واجب المسلم أن يحب للكافر الدخول في الإسلام وأن يدوم عليه، حتى يحصل له من الخير المأمول ما يستفيده المسلم العامل بأصول دينه، والمطبق في سلوكه أوامر الله، والمجتنب لنواهيه، ولهذا كان الدعاء بالهداية مستحبا دائما في كل الحالات...» «ما يحب لنفسه» من الخير والمنفعة العاجلة والآجلة، وفي رواية النسائي «حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ويبغض له مثل ما يبغض لنفسه» وفي رواية الإمام مسلم «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه، أو قال: لجاره ما يحب لنفسه». والخير اسم جامع لكل الطاعات والمباحات: من العبادات والطيبات من الرزق، وسعة العيش ورفاهية الحياة، وفي الأثر الشريف: «انظر أحب ما تحب أن يقدمه الناس إليك فأده إليهم».

٢- وينبثق عن المحبة المشار إليها في الحديث

الشريف «الإيثار» وهو إيصال النفع إلى الغير مع الحاجة الماسة إليه، فالمحب في الله يؤثر أخاه بكل فضل ومعروف جل أو قل، قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] فهم يقدمون إلى إخوانهم ما يحتاجون إليه، مع أنه غير زائد عن حاجتهم، فقد يبيت أحدهم طاويًا، ويطعم الطعام من هو أشد حاجة إليه منه، راجيًا رحمة الله ومغفرته، سالكا ذلك الطريق طريق المحبة إلى رضوانه وجناته، فهم لا يطلبون من الناس جزاءً ولا شكورًا وإنما يفعلون ما يفعلون طمعا ورجاء لما عند الله. قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[2] وقد يتعدى الإيثار الطعام والشراب إلى المال كله، وما ملكت يد الإنسان؛ بل أحيانا يتجاوز ذلك إلى الفداء بالنفس والروح، ومن أبرز الأمثلة التي يجب أن تحتذى في هذا الصدد، ما فعله سيدنا علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- ليلة الهجرة الكبرى حين بات في فراش رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو يعلم علم اليقين الذي لا يخامره شك ولا يصل إليه ريب أن الموت أدنى إليه من حبل الوريد، فما بينه -رضي الله عنه- وبين الاستشهاد في سبيل الله إلا أن تمتد إليه السيوف المشرعة في أيدي الأشداء من الكفار المترصدين لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينذاك، ولكنه الإيمان بالله وبرسوله، والحب في الله ولله وحده. وقل مثل ذلك في صنيع سيدنا الصديق أبي بكر بن أبي قحافة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- حين دخل الغار مع رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، ووضع قدمه على فتحة جحر الثعبان الذي ناشه بأنيابه وأفرغ فيه سمه فما هاج ولا ثار حرصًا على الرسول الأمين وحفاظا على حياته الشريفة، ومثل ذلك الفداء كثيرًا ما تكرر من أولئك الأبطال المغاوير الأفذاذ الذين رسموا للحياة الحرة الكريمة أقوم سبيل لا عوج فيها، فسادوا وغدوا ضياء ونورًا يسير على هداه المصلحون المخلصون، والمؤمنون العاملون، وخلدت ذكراهم ولن يمحوها كر ليل أو مر نهار حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٣- ومن دلائل المحبة لله، ألا يتعرض المؤمن لحرمات الناس مهما كانت عقائدهم، ومهما تنوعت مشاربهم، واختلفت دروبهم، فلا يدخل المؤمن أبدًا فيما لا يعنيه من شؤون غيره؛ بل يجعل اهتمامه بما يفيده ويفيدهم، وما ينفعه وينفعهم، ومايبقى عليه وعليهم، وما يمضي به وبهم قدما إلى كل فضيلة وسبق في الخير وطاعة لله وعمارة دنياه ودنياهم بمحبة خالصة صافية لوجه الله.

روى الترمذي وغيره عن عبد الرحمن بن صخر قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[٣] وفيه إشارة إلى ترك الفضول، فالمؤمن مع المؤمن كالنفس الواحدة، ومصداق ذلك قول رسول الله ﷺ «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر». ويلزم من ذلك، كف الأذى والمكروه عن الناس عامة والمؤمنين خاصة، وبهذا يبلغ المؤمن مرتبة الكمال والسمو النفسي، ويحتل أشرف مكانة بين الناس، سئل لقمان الحكيم مرة: «ما الذي بلغ بك ما نرى من الحكمة والفضل؟ فأجاب: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وتركي ما لا يعنيني» وروى أبو عبيدة عن سيدنا الحسن -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أنه قال: «من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه».

ومن مستلزمات المحبة أيضًا: أن يكون المؤمن أمينا في كل شيء، وأن يؤدي الأمانات إلى أهلها دائما، فهذا يوثق رباط الألفة ومما يعين على ذلك أن يصرف وظائف أعضائه فيما يجلب له حب الناس ومودتهم، ويعين على رضا الله ومغفرته، فلا يستعمل لسانه في غيبة أو نميمة، أو كذب، أو بهتان، أو بدعة مفسدة، وألا يمد عينيه إلى محارم العباد، فلا يتجسس ولا يتحسس، وألا يصغي بأذنه إلى الافتراء والأضاليل، وما لا يرضي رب العالمين، مما هو خارج عن حدود الإسلام وقواعد الأخلاق الكريمة، وأن يرد الودائع إلى أهلها، وأن يترك الشجار والخلاف والنزاع وأن يديم المعاملة الطيبة الكريمة مع كل من عرف ومن لم يعرف.

ومن أمانة المسؤولين عن أمور العباد أن يعدلوا فيما بينهم، وأمانة العلماء أن يدأبوا على تبليغ رسالة الله إلى خلقه أسوة برسول الله وخلفائه الأبرار، ولا يهنوا، ولا يضعفوا مهما لاقوا من عقبات، حتى يمكنوا لطاعة الله بين عباده، ويحملوا الناس على الأخلاق الفاضلة، ويبعدوا بهم عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ومن أمانة النساء ألا يخن في مال أو عرض، ولا يوطئن فراشهن غير أزواجهن، ولا يخرجن من بيوتهن إلا بإذن أولياء أمورهن، وفي رفقة محارمهن، ومن أمانة الرجال الحفاظ على زوجاتهم وإدامة حسن معاملتهن، وبذل كل معروف لهن. ومن أمانة التابعين أن يحافظوا على أموال متبوعيهم ولا يقصروا في أداء الواجب نحوهم، وعلى متبوعيهم أن يعاملوهم بالحسنى وزيادة، فيطعموهم مما يطعمون ويلبسوهم مما يلبسون، فهذه هي أمانة الله التي يجب أن تؤدى، والتي بها تقوى المحبة وتدوم الصلات الكريمة بين الناس على مختلف أحوالهم ودرجاتهم وقد قال أنس رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ فكان مما قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له».

٤- ولا يخفى أن حب المؤمن الخير للآخرين،

من التكاليف الشاقة المضنية فليس هو مجرد قول، وإنما عمل بكل ما تطلبه الشريعة الغراء، والنفس نزاعة إلى اتباع الهوى، والشيطان يتربص بالمؤمن الدوائر، وقد ورد في الآثار الشريفة: أن الله تبارك وتعالى خلق الدنيا وزينها بخمسة أشياء: علم العلماء، وعدل الأمراء، وعبادة الصالحين، ونصيحة المستشارين، وأداء الأمانات إلى أهلها. ولكن الشيطان الرجيم الذي شطن عن طاعة ربه، وعصى مولاه، وتوعد بني آدم بالويل والثبور، كما حكى عنه القرآن الكريم ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٤] وفي موضع آخر من الكتاب العزيز قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾[٥].

أقول: إن هذا العدو اللدود، الذي لا يفتأ ينفث سمومه بين عباد الله، ليفرقهم، ويغرقهم في المعاصي، ويجلب لهم الذل والهوان، هذا الشيطان زين لابن آدم أشياء تناقض مازين الله به الدنيا، فقرن العلم بالكتمان، والعدل بالجور، والعبادة بالرياء، والنصيحة بالغش، والأمانة بالخيانة. ومن هنا تلاشت المحبة بين الناس أو كادت إلا من عصم الله، والذي يبشر بالخير ويدفع اليأس ما أشار إليه سيد الرسل بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم..» الحديث. وهؤلاء يحبون لغيرهم ما يحبون لأنفسهم وهم منبثون في الأرض، وقد لا يعلمهم إلا الله، والعلماء يرسمون طريق الخير ولا يقصرون، وعلى الله قصد السبيل. إنه نعم المستعان.

* * *

الهوامش:

(١) الآية (٩) من سورة الحشر.

(٢) الآيات: ٨، ٩، ١٠، من سورة الدهر.

(٣) رواه البخاري وغيره.

(٤) الآية ٦٢: الإسراء.

(٥) الآيات ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠ سورة النساء.

* * *

بيان الملكية

اسم المطبوعة	:	الداعي
الدورة النشرية	:	شهرية
الطابع والناشر	:	(مولانا) أبوالقاسم النعماني
الجنسية	:	هندي
العنوان	:	دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي
رئيس التحرير	:	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
مالك المطبوعة	:	دارالعلوم ديوبند

أصادق على أن التفاصيل المذكورة أعلاه صحيحة حسب علمي واطلاعي (توقيع)

(مولانا) أبوالقاسم النعماني

أرحْنا بهَا يا بلال

بقلم: **الأستاذ أحمد العناني**

كلمة لرسول الله ﷺ أوقفتني طويلا .. طويلا.. وأحسست بها راحة هانئة عميقة.. عميقة.

ونقلتني من متاهة نكراء موحشة إلى درب أمم، صراط سوي واستشعرت روحي هادئة في جسدي.

وقلبي مستقرًا مستريحًا في صدري.

وعينيَّ وجدتهما أهالتَا دمعتين ثم تحررتا من كرب محتبس كدمعتي طفل ضلّ عن أهله في سوق مزدحمة بالناس.

ثم فجأة عثر عليهما. وتعلق بأهدابهما. من بعد أن ظن ألا تلاقي.

* * *

كلمة لرسول الله محمد ﷺ.

كانت المفتاح الرئيسي العميد، الذي يفتح كل الأبواب في عمارة كثيرة الحجرات، متعددة الأبواب.

أو الطاقة الصغيرة الخفية، يتسرب منها النور في سفح جبل، فإذا اهتدى إليها عابر سبيل فنظر منها كشفت له من ورائها ومن تحتها عن عالم من الآثار، وعمائر الحفائر لم تكشف نفسها لكل سائر.

* * *

أرحنا بها يا بلال!

بلال بن أبي رباح الحبشي الذي كان قبل سنوات من هذه الكلمة عبدًا حبشيًّا أسود يجرجره في وحول المهانة كما يشاء رجل من قريش يسمى أمية بن خلف.

بلال بن أبي رباح الذي كان مولى مهانا، فأصبح اليوم في مركز صدارة، بين أحرار مكة والمدينة المؤمنين، قم أذن للصلاة، لندخل في فترة من الحياة، ليس فيها شيء من هذا الذي يزعجنا في دنيانا، وبذلك ننتشي، وننسى وننشط ونتجدد.

* * *

كأنما رسول الله ﷺ يريد أن يقول لبلال بن أبي رباح: هذه الحياة متعبة يا بلال.

متعبة لأن نفوس الناس من داخلهم تتعرض لوساوس تحبب إليهم الكسل وقلة العمل، وتغريهم مع ذلك بسريع المغنم ومفاجئ الربح.

لأن نفوس الناس من داخلهم نزقة هشة ملولة يصعب عليها أن تصبر وتنتظر حتى مطلع الحق، ويشق عليها أن تجانب الهوى في الحكم، وتحتمل عبء النزاهة في الرأى.

لأن نفوس الناس هلوعة جزوعة، وعقولهم مشاكسة مجادلة، وهواهم لجوج، وقلوبهم حارة قلقة تغاديها الغيرة، والحيرة، ويداخلها الحسد، والحسرة، وتسارع إلى القنوط للتافه التافه، وتضج بالغرور للعارض الزائل.

وإذا فالمخرج المخرج.. ومخرج المسلم من ذلك هو للصلاة.

وليس التخدير مثلا بالخمر، ولا اللهو الشرود بالقمار، ولا ما دخل في باب الخمر أو اندرج تحت فصيلة القمار.

وإنما هي الصلاة يا بلال

وإذا كانت الصلاة كان بالله اتصال

وهناك يكون الصبر الجميل بغير ضجر

وإسلام الروح لهداية غراء لا تضلل ولا تغدر

* * *

من لي ببلال يريح المؤمنين بها وهم جماعة!

يصغون لدى التهيؤ لتلك الراحة إلى تقي منهم يعلن حلول موسمها.

تقي لا هو ناظر بحسرة إلى لونه الأسود أو الأحمر.

ولا الذين يسمعونه في أنفسهم شيء له غير الإعجاب والمحبة كلهم خالصون من الكبرياء والحقد.

وهل أفسد دنيا الناس اليوم إلا كبرياء القوة، وحقد الضعف؟

* * *

من لي بالصلاة تؤدى على وجهها حقًّا، فتوفر على جيل الضياع الحائر كل هذا الضجيج الذي لا يولد إلا ضجيجًا مثله وأقسى.

توفر هذه الموسيقى المحمومة الثملة في حفلات النفاق، واهتزاز الأجساد الرعن في حركات كحركات القردة البلهاء.

وهل مسخ الناس الضالون إلا قردة بغير أذناب، وهم في رقصهم المختلط المجنون، يفرون من أوصاب الضمائر الملطخة بمظالم النفوس، فإذا هم في أسوأ مما فروا منه يرتكسون.

يناديهم لموسيقى «الجاز» رجال أكثرهم من العبدان السود لأن هذه الموسيقى أصلا انفجرت من مظالم المنبوذين في حضارة الأنانية والفساد.

والعبدان يعزفون وهم حاقدون، يتميزون غيظًا على الوافدين والعابثين الراقصين.

والعابثون يفرون من فراغ الكبرياء والنفاق إلى كؤوس يشربون فيها مع الخمر دماء المستذلين السوداء.

* * *

وكأنما يقول محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أرحنا بها يا بلال!

أي انقل أنفسنا بهذا التغيير المسعد من رتابة الحياة إلى الاتصال بالله.

انقلها من حالة الإجهاد، من الصراع ضد الشر والظلام، إلى واحة نغتسل فيها بالضياء، فنعود أحدّ عزما، وأعظم مضاء، لنستأنف المعركة تحت لواء الحق.

فترة تجدد وتأهب واستعداد

لاستئناف المعركة، لا للفرار كما يفعل أولياء الشيطان

لأن صلاتنا ونسكنا ومحيانا ومماتنا لله رب العالمين.

* * *

لكن واضحًا من كلام الرسول عليه السلام أن الصلاة إذا لم توجد راحة فلا تكون صلاة.

فمن حيث الشكل والأسلوب والأداء – كما نقول اليوم – ثبت أن الرسول -عليه السلام- قال – وهو يرى مصليا معجلا ينقر في صلاته نقرًا – عن ذلك الرجل «كأنه لم يصل».

ومن حيث الموضوع والمحتوى فإن صلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ليست أبدًا بصلاة.

وإنما هي تماوت يميت على المسلمين دينهم كما

أشار عمر بن الخطاب -عليه رضوان الله-..

* * *

ولكي نستطيع أن نجد الراحة بالصلاة يجب أن نهيئ أسباب الأداء الصحيح لها شكلا وموضوعًا.. ففي نطاق الفرد طهارة لا تقبل الإثم، ولا تسيغه أن يستمر إذا وقع، ولا تلبث أن تغسل آثاره بالتوبة ونفس لا تستمرئ الكسب إلا حلالا، ولا تعيش على الناس عالة، وقلب إذا أحس القوة لم يجنح إلى الكبرياء، وإن استشعر الضعف لم يرتكس في المذلة الحقد.

واستعداد دائم لأداء الحساب أمام الله عن النفس والأسرة، وكل ما دخل في نطاق المسؤولية ضاق ذلك أم اتسع.

وفي نطاق الأمة تباعد عن الشح والأنانية، والترف والتبذل، وتأهب فعال للجهاد والتضحية، وبث الحقيقة وحمل الرسالة ولو إلى أقاصي الأرض، في محبة مطلقة للمؤمنين، وشدة شديدة على المقاومين والمحاربين.

* * *

وبلال يرفع الأذان قرير العين ساكن البال

يقف في صف كأنه صف الملائكة حيث ينتهي به المكان

لا يدافع عن موقف لأنه فقير. ولا عن منزلة كرامة؛ لأنه أسود، ولا عن حق لأنه ضعيف

لو عمل لأخذ أجره على تمامه قبل أن يجف عرقه

ولو استأذن على عمر لدخل بسابقة الإيمان قبل أبي سفيان

ولو أقعده ضعف أو شيخوخة فله في بيت المال سبيل إلى الأمان

أما بعد أيها الناس فنحن عبيد الله لا محالة

نعيش أطوارًا محتومة بقضائه وننتهي إلى حساب عنده

وليس لنا مفر من الله إلا إليه

ولذلك يرحمنا ويشرفنا باستقبالنا خمس مرات إليه، يؤتينا من نوره ما نجدد به العزم، ونستأنف النضال والصيال.

فمن كان سبيله غير هذا السبيل. فإنما فراره من صعوبة إلى مصيبة. ومن قلق إلى هم وداهية.

وإذا سألتم لماذا تظلم دروب الحياة كل هذا الإظلام؟

فإن لكم جوابًا لبقًا حصيفًا من مدرسة في جامعة ميلانو

هي الدكتورة الدارسة فاجليري التي تقول:

لقد اشتد الظلام بهجران القرآن

وهل آلة الصلاة ومادتها غير القرآن؟

* * *

ليت شعري هل تنهض العدالة في الأرض كما نهضت ذات يوم؟

هل تعلو كلمة الحق كما علت فأضاءت الأرض في ذلك العهد؟

هل تصبح الموازين هي العمل والتقوى والفداء في الله؟

هل يرتفع في الآفاق صوت صادق الأداء كصوت بلال؟

فتجد الإنسانية المعذبة تلك الراحة الحقة دون راحة القرار القلقة التعسة في حمأة الشيطان.

ونسمع صوت الرسول الكريم ونحس أبعاد كلمته المنيرة الخالدة «أرحنا بها يا بلال»!

* * *

بقية إشراقة: المنشورة على ص ٥٦

وحَمِدتُ الله سبحانه وتعالى على أنّه جعلني أَعْتَزُّ بهذه اللغة الفصحى في كل الأحوال ولا أرى لنفسي عنها بديلًا، ولم تُحَدِّثْني نفسي يومًا أن أقتدي بهم في محلياتهم، و«أتشرف» بالحديث بها كما يشعر بعض الإخوان؛ لأني أعتقد أنّ هذه المحليات أحد العوامل الـمُفَرِّقة بين الإخوان أبناء دين واحد وكتاب واحد وأصحاب هموم وآلام واحدة وأهداف عدوّ واحد وهو الجاهلية بأوسع معانيها وكل صورها وأشكالها.

أو ليس من المصيبة أن يتكلم المصريُّ بلغة قد لايفهمها السعودي، و السعوديُّ يتكلم لغةً قد لا يفهمها المصريُّ أو الشاميُّ، وكلٌّ من هؤلاء يتحدثون لغةً ربما لا يفهمها المغربي. إن الله مَنَّ عليهم بهذه العربية الجميلة العذبة الفصيحة التي أَنْزَلَ فيها كتابه وتكلم بها رسولُه وصحابته، فاستعوضوا عنها في الحديث والخطاب والتفاهم، لغةً عربية الشكل، عجمية النغم والنصّ في كثير من الألفاظ والحروف، أو ليس من العجيب أن نُبَدِّل نحن العجَم كثيرًا من كلمات لغتنا وأسماء بلادنا ومدننا، وأحيانًا أسماء الأفراد بالحروف العربية مراعاةً للعرب والعربية، فنجعل «علیگڑھ». (علي جراه) و«اَعظم گڑھ» «أعظم جراه» و«بنگلہ دیش» (بنغلاديش) ثم نجد العرب أنفسهم يُبَدِّلون حرف «القاف» العربي بالكاف الهنديّة فيقولون «أكَل لك » بدل أن يقولوا «أقول لك » ويلفظون «إنت » بالكسر مكان «أنت » بالفتح، و«مِن» بالكسر مكان «مَن» بالفتح، و«ربنا گادر على كل شيء» مكان «ربنا قادر على كل شيء» و«أي حاگَة» مكان «أي حاجة»، ولا أستطيع أن أعدّ الكلمات التي يصنعون منها عجائب.

فهنيئًا لكم أيّها العرب هذه الرَّطانة بعد الفصاحة، وهذه العجمية بعد العربية، أما نحن فلن نقلدكم في هذا الجانب، ولن نبغي بالعربية التي نزل بها الكتاب وتكلم بها النبي بديلًا أبدًا.

ومعذرة إلى هذا الأخ العربي الذى لم أفهمه رغم محاولته المكثفة، ولا نتقدم بالمعذرة إلى العرب الذين قد يسوؤهم ما أبديتُ هٰهنا من الفكرة؛ لأنها حق أريد أن أنادي به في كل نادٍ و وادٍ[1].

---

(١) كُتِبَ المقالُ في ٨/جمادى الآخرة ١٤٠٣هـ الموافق ٢٤/مارس ١٩٨٣م.



حقيقة أودّ أن أنادي بها في كل نادٍ و وادٍ

كان يتكلم معي باللغة العربيـة، ويحاول بحيلة وبأخـرى أن أفهم منـه ولوكلمـةً، وأعرف ما عنده من رأي في الموضـوع الـذي كنتُ أنا وهـو نتحدث حوله منذ أن ركبنا الحافلةَ؛ ولكنّي ياليتني فهمت ما يصدر من فمه من كلمات مُزَمْجَرَة .. وقد تعجب – وتقرأ لي هذا التعليقَ – عندما تعرف أني تعلمتُ العربيةَ سنوات وعِشْتُ بها وفيها سنوات طوالًا، تدريسًا وكتابةً وخطابة، وتقول ما بالُ الرجل بعد ذلك كلّه لم يفهم العربيةَ حين كان ينطق بها ابنٌ من أبنائها؛ أو نَسِيَ بتاتًا في لحظة ما عاشه سنوات؟!

صَدِّقْنِي أنّه لم يحدث شيٌ مما قد يخطر ببالك؛ ولكني فُوجْئتُ بعربية ماكان لي بها عهد منذ أن أَسْعَدَنِي الله باللغة العربية. كنتُ أسمع منه نطقًا بحروف عربية نطقًا صحيحًا كان يُعْجِبْنِي، وكان يُؤسِفني أني ماكنتُ أُدْرِك شيئًا مما ظل يقول طَوَالَ الطريق .. قالوا لي: إنها لغة دارجة أو لغة محلية، ولكل بلد وقطر لغة من هذه اللغات المحليات يتفاهم بها أبناؤه؛ ولكنهم لايستخدمونها للكتابة والخطابة والتأليف والتدريس، وإنما يستخدمون في هذه الأغراض اللغة العربيةَ الفصحى.

وقد لايقدرون على الكلام بالفصحى بالسرعة التي يقدرون بها على التكلم بالمحلّية أو الدارجة، وعندئذ شكرتُ الله – جل وعلا – على أنّه منّ عليّ بهذه الفصحى حديثًا وكتابةً وخطابةً وتدريسًا، اللغة التي نزل بها الكتابُ، وتكلم بها الرسولُ الأعظم ﷺ، وصحابتُه الأبرار ومَنِ اهتدى بهديهم.

(البقية على ص ٥٥)

الأستاذ الكبير أبو أسامة نورٌ